# القسم الثاني

## نحو القيادة والتمكين

## (كنتم خير أمة أخرجت للناس)

# أولاً

## القيادة الصحيحة للأمة :

## حين يتمّ التعاون بين الأمراء والعلماء

## (شواهد من التاريخ)

## ١ - التعاون بين أولي الأمر والعلماء هو الأصل في حضارتنا

إنني أعتقد أنني لن أكون مبالغاً حين أقول: إن كثيراً من الخلفاء الأمويين والعباسيين قد ظُلموا، وإن كثيراً منهم كانوا - في الحقيقة - خلفاء صالحين يتعاونون مع أهل العلم والدعوة والورع تعاوناً كاملاً.

وإنني أعتقد أنه من الواجب عبور كثير من هذه الفترات الصالحة، لأن أصل العلاقة فيها كان قائماً على التعاون بين أهل السياسة وأهل الدعوة والفقه والعلم.

ولهذا فإنني أعبر بعض الخلفاء العظماء المشهورين من آل العباس، من أمثال محمد المهدي، وهارون الرشيد، لأنني أرى أن إبراز هذه المعاني عند هؤلاء من باب تأكيد المعروف والمتفق عليه من المنصفين.

كما أنني أيضاً عمدت إلى تجاوز العصور المزدهرة غالباً حتى لا يُحتج بأنني ركزت على المشهورين الذين يمثلون - في رأي المتحيزين ضد تاريخنا- الشذوذ والاستثناء.

ولهذا الالتزام - كذلك - فإنني لا أرى الوقوف عند عمر بن عبدالعزيز حين يكون الحديث عن بني أمية، وأيضاً فإنني لا أقف عند محمد المعتصم العباسي (٨٣٣ - ٨٤٢ م) صاحب عمورية العظيم، ولا أرى الوقوف عند هارون الواثق، أو جعفر المتوكل الذي قاوم حركة ظلم الاعتزال، وأنهى الظلم الذي وقع على أهل السنة.

وسوف أقفز لأقدم نموذجين من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) استغرق حكمهما نحو ستين سنة،

وهذا القرن الخامس - كما هو معروف - من القرون التي تحسب من عهود ضعف الدولة العباسية..

في هذه الفترة كان الخليفة في بغداد المقتدي بأمر الله العباسي الذي حكم عقدين من الزمان (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) واحداً من خليفتين حكما في النصف الثاني من القرن الخامس.

ويكاد يجمع المؤرخون على أن المقتدي كان يتمتع بأخلاق طيبة، وأن من صفاته حبه للدين والخير، وكانت نفسه قوية، وهمته عالية، وذا شجاعة وشهامة، وكل أيامه خير وبركة، حسن السيرة والسريرة[١]، ويصفه ابن كثير - أيضاً- بأن فضائله عالية، وغيرته على حريم الناس لا تضاهى، يأمر المعروف وينهى عن المنكر، ويمتاز بالعدل والصلاح والتقوى ولين الجانب وكثرة العلم[٢].

وكان المقتدي حريصاً على أخلاق الناس ودينهم، ولذلك عمل منذ خلافته على تطهير بغداد من عناصر الفساد والفجور، وخرّب الخمارات، ودور الزواني والمغاني[٣]. وقد تابع التطهير كلما ظهر ما يوجبه[٤].

وكانت المدارس الفقهية هي الظاهرة اللافتة للنظر، لأنها تعكس تطور الحركة الفقهية وعلم الحديث والتفسير والآداب واللغة، لأنها جميعاً كانت مواد التدريس التي يتلقاها طلاب هذه المدارس، وكان

---

(١) ابن القلانس: ذيل تاريخ دمشق، ١٢٦، طبعة بيروت.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٤٦/١٢، دار صادر بيروت.

(٣) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد، ص ١٦، دار النفائس بيروت. ط١٤٠٤/١ هـ

(٤) ابن كثير: البداية ولنهاية ١١١/١٢.

انتشار المدارس بمدينة بغداد في عصر السلاجقة هو الحدث الأكبر والأهم الذي حققته الحضارة الإسلامية، وتعد بحق قفزة كبيرة في سلم التطور العلمي بعد أن كان التدريس محصوراً في المساجد وبعض الكتاتيب.

وقد أنشئت المدارس لخدمة المذاهب الفقهية ولتغذية أجهزة الدولة بالقدرات العلمية اللازمة (١).

وقد احتل الفقهاء ورجال العلم منزلة رفيعة في المجتمع الإسلامي بمدينة بغداد في أيام المقتدي بالله العباسي، وأسهموا في معظم الأحداث التي شهدتها المدينة الخالدة بإذن الله (بغداد) وازدهرت في هذه المرحلة مذاهب الفقه السنية الثلاثة: مذهب الإمام أحمد بن حنبل ومذهب الإمام الشافعي ومذهب الإمام أبي حنيفة (٢).

أما الخليفة المستظهر أبو العباس أحمد المقتدي فقد حكم بين سنتي (٤٧٠ – ٥١٢ هـ) ويصفه المؤرخون بأنه لين الجانب، كريم الأخلاق يحب اصطناع الناس، ويفعل الخير، ويسارع إلى أعمال البرّ والمثوبات (٣)، وكان مؤثراً للإحسان، حافظاً للقرآن، محباً للعلم، منكراً للظلم، وكان مشكور المساعي، لم يردَّ مكرمة تطلب منه وكان كثير الوثوق بمن يوليه، غير مصغ إلى سعاية ساع، ولا ملتفت إلى قوله، ولم يعرف منه تلوث وانحلال عزم، بأقوال أصحاب الأغراض (٤).

---

(١) محمد حسين شندب: الحضارة الإسلامية في بغداد. ص٥٦.
(٢) محمد حسين شندب: المرجع السابق، ص ٦٠، ٦١.
(٣) عز الدين أبو الحسن بن الأثير: الكامل، ص ٥٣٥، طبعة دار صادر، بيروت. وانظر محمد حسين شندب، المرجع السابق،٨٥، ٨٦.
(٤) ابن الأثير: المكان السابق، ص ٥٣٥، والمرجع السابق ١٨٧.

وكان جميل السيرة متصفاً بالعدل والإنصاف، ناهياً عن قصد الجور والاعتساف، سمحاً جواداً، هيناً ليناً، حسن المعشر، قد حسّن الله خَلْقَهُ وخُلُقَهُ، وبره وأدبه، نقش خاتمه «ثقتي بالله وحده»، يحب العلماء والصلحاء، كبير الهمة، سهل العريكة. وكانت أيامه أيام سرور للرعية فكأنها من حسنها أعياد، وكان حسن الخط، جيّد التوقيعات(١).

وقد تميزت العلاقة بين المذاهب الإسلامية في عهد المستظهر بالصلح، والمودة، والاحترام، وهذا كان بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعها الخليفة في معاملة عامة الناس.

ويعدّ عهد المستظهر من أزهى العهود التي عرفها أهل الذمة ببغداد؛ لان المستظهر حرص على معاملاتهم بالحسنى وقرّب زعماءهم.

**٢ - صور من التعاون في العصر الأيوبي:**

بوفاة عماد الدين زنكي سنة ٥٤١ هـ، فقد المسلمون عَلَماً فذاً قاوم الصليبيين بضراوة وعمل على توحيد المسلمين، لكنهم سرعان ما وجدوا أن بذوره الصالحة قد تركت وراءها ابناً كريماً من أبنائه هو نور الدين محمد الذي كان في الثلاثين من عمره حين مات أبوه.. فشقّ طريقه ليحمل الراية الإسلامية ومضى يؤدي الرسالة بالمستوى نفسه الذي كان عليه أبوه رحمه الله.

كان لنور الدين فضل في صد الحملة الصليبية الثانية، والقضاء على الخونة الأرمن الذين تواطؤوا مع الصليبيين، كما قضى على الخونة

---

(١) ابن الاثير: ٥٢٦/١٠، وانظر ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ٢٩٤/٨، حيدر أباد - الهند - سنة ١٣٥٨ هـ.

المسلمين من أمثال الخبيث «معين الدين أنر» وتابعه والي بصرى التونتاش، وضم نور الدين دمشق إلى الجبهة الإسلامية كما أن ضمّ مصر إلى الجبهة يُعد مأثرة من مآثره.

وقد سار صلاح الدين على الدرب نفسه الذي سار عليه عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، فقام بتوحيد الشرق الإسلامي، واستولى على دمشق بعد وفاة نور الدين، وضمها إلى مصر مع كثير من بلاد الشام، كما فتح أخوه توران شاه بلاد اليمن، وبعد ذلك نجح صلاح الدين في ضم حلب، والجزيرة، والموصل، وبذلك ضم صلاح الدين الأقطار الإسلامية في نظام اتحادي يمكنّه من إعلان الجهاد ضد الصليبيين، بعد أن يكون قد أمّن الخطوط الخلفية لنشاطه العسكري، وضمن موارد عسكرية، وبشرية وتموينية كافية لقتال الأعداء (١).

ولم يلبث صلاح الدين أن هاجم المناطق والمدن التي كان الصليبيون قد احتلوها، وأسسوا فيها إمارات مضى على قيامها نحو قرن من الزمان، فانتصر في موقعة «مرج عيون» في لبنان - سنة ٥٧٥ هـ، واستولى في السنة نفسها على حصن الأحزان وأسر من فيه، وحطم مغامرة «ريجنالد» في الاستيلاء على الحجاز.

وفي سنة ٥٨٣ هـ زحف صلاح الدين على رأس جيش إسلامي كبير سار به من دمشق، استولى على حصن الكرك وطبرية، وهناك قريباً من طبرية دارت رحى معركة (حطين) الخالدة (٥٨٣ هـ) بين جيش المسلمين

---

(١) د. عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام، ص ١٢٨ طبع بيروت.

الموحد، وبين الجيوش الصليبية بقيادة ملك القدس وأمراء صور، وعكا، والناصرة، والكرك.. وكانت معركة حاسمة انتصر فيها السلطان صلاح الدين، وأنزل بالفرنج هزيمة ساحقة [١]، وأسر ملك القدس «لوزينان»، والمغامر رجنالد حاكم الكرك، ومعظم قواد الجيش و(١٤) ألف جندي وقتل منهم (٩) آلاف، وزحف صلاح الدين بطل الوحدة الإسلامية المنتصر فاستولى بسهولة على عكا، وصيدا، ويافا، وبيروت، ونابلس، والرملة، ودخل القدس ظافراً في رجب ٥٨٣ هـ، وكانت تلك نهاية عظيمة لمسيرة التوحد التي بدأت بعماد الدين زنكي.

وجدير بالذكر أن عدداً من الدعاة والعلماء قد وقفوا مع هؤلاء الأبطال الثلاثة (زنكي، ونور الدين، وصلاح الدين)، وكان على رأس هؤلاء المؤرخ بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن شداد(٦٣٢/٥٣٩ - ١٢٣٤/١٤٤٥)، والفقيه ضياء الدين عيسى بن محمد الهكاري (ت ٥٨٥ هـ)، والمؤرخ المعروف عبد الله محمد الأصفهاني المعروف بالعماد الكاتب (٥١٩ - ٥٩٧ هـ/١١٢٥ - ١٢٠٠ م). الذي كان قلمه كما يصفه المؤرخون أشد وأنكى، على الصليبيين من سيوف المجاهدين، إذ به جمع صلاح الدين عساكر المسلمين، وبأسلوبه البليغ المؤثر ألف بين قلوبهم، وحبب الاستشهاد إلى نفوسهم، وآية ذلك قوله: «وكان يأمرني بإجابة كتب الملوك في حالتي سلمهم وحربهم، وما اجتمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمي» وشهد مؤرخو الغرب للعماد الكاتب بالصفات الحميدة، ووصفوه بالتدين ونبل الخلق[٢].

---

(١) المرجع السابق.

(٢) نظير حسان سعداوي: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين الأيوبي، ٢٧، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٦٢ م.

ويعد أبو علي محيي الدين بن علي البيساني العسقلاني (٥٢٦ - ٥٩٦ هـ/ ١١٣٥ - ١١٩٩ م)، المعروف بالقاضي الفاضل - من أشهر من وقفوا مع صلاح الدين الأيوبي في ميدان التعاون على صلاح الدين والدنيا وتحقيق النصر، - وكان القاضي الفاضل يتميز بأنه موضع ثقة صلاح الدين ومستشاره الأمين، ومن ذلك ما يروى من أن صلاح الدين كتب إلى القاضي الفاضل وهو على حصار عكا ١١٩٠م. يشكو إليه مسلك أمراء المسلمين معه، وضجرهم من طول الإقامة للجهاد، فرد عليه القاضي الفاضل ناصحاً بسعة الصدر معهم، ورأى أن يكون إلى جوار صلاح الدين، ناصحاً ومشيراً ومسكِّناً لثورة الأمراء، فغادر القاهرة فوراً وعاد إلى عكا فوصلها في يناير سنة ١١٩١م.

ولم تكن تلك المشورة مقصورة على شؤون الدولة والحكم، بل تعدتها إلى شؤون صلاح الدين الخاصة، منها أن صلاح الدين عزم على الحج والزيارة بعد عقد صلح الرملة (٥٨٨ هـ/١١٩٢ م)؛ فأشار عليه القاضي الفاضل بتأجيل ذلك إلى سنة أخرى، لأسباب عرضها عليه؛ مؤيداً إقناعه بفتوى دينية نصها «إن الانقطاع لكشف مظالم الخلق، أهم من كل ما يتقرب به إلى الله» (١).

ومن هذه النماذج - وغيرها كثير جداً - يتأكد لنا أن التعاون كان كاملاً بين علماء الدين، ورجال الدعوة، والفكر، بين الأمراء والقادة، وكانت نتيجة هذا التعاون الانتصارات المعروفة التي حققها الأبطال

---

(١) المصدر لسابق، ص ٣١: ٣٢.

الثلاثة، عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، رضي الله عن الجميع وجزاهم عن الإسلام خيراً.

## ٣ - التكامل بين الساسة والدعاةِ في العصرين المملوكي والعثماني

يؤكد كثير من المؤرخين الثقات أن الشريعة الإسلامية كانت هي المصدر الوحيد للتشريع والقضاء في العصر المملوكي، وكان الفقهاء هم القائمين على حراستها والاستنباط منها.

ويوضح لنا الأستاذ حنفي محمود خطاب ما كان لعلماء الدين من سطوة ونفوذ في الدولة المملوكية بصفة عامة فيقول:

«إن الدين كان منبع القانون بين الناس، وكان سلاطين المماليك لا يعرفون أحكام الشريعة الإسلامية، أو وسائل تطبيق تلك الأحكام، لأنهم عاشوا عيشة عسكرية منذ نشأتهم، ولم يعرفوا من شؤون الدين سوى ما تلقنوا من مبادئه الأولى في شبابهم الأول بثكنات القلعة وطباقها، وكان من الطبيعي أن يترك المماليك لرجال الدين تلك الناحية من شؤون الدولة» (١).

وقد برز من علماء الإسلام في هذا العصر كثيرون على رأسهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام (سنة ٦٦٠ هـ)، وتقي الدين عبدالوهاب ابن بنت الأعز قاضي قضاة الشافعية (سنة ٦٥٤ هـ)، وهو صاحب مواقف مشهورة، وشيخ الإسلام الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٧٢٨ هـ)، وهو أشهر من أن نقف عنده!!.

---

(١) حنفي خطاب: الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الأولى (رسالة ماجستير، ١٩٤٢، جامعة القاهرة) ص ١٢١.

وكانت مكانة علماء الإسلام بارزة على المستويين الشعبي والرسمي، فلم تكن تتم بيعة الخليفة أو السلطان إلا بحضورهم.

وقد وقف العلماء وقفات مشرفة وجريئة ضد السلاطين، ورفضوا الإفتاء على هواهم ورغباتهم؛ كما فعلوا مع السلطان الظاهر برقوق عندما شكا لهم بأن الخزائن خالية من الأموال، والعدو (المغول) زاحف على البلاد، وأنه يريد أخذ نفقة العسكر من مال الأوقاف المرصدة للجوامع والمدارس، فلم يوافقوا على ذلك، بل أكثر من ذلك أغلظوا على السلطان القول، لكن لما طال الأمر اتفقوا مع السلطان بأن يؤخذ من مال الأوقاف وخراج الأراضي سنة كاملة فقط، وتبقى الأوقاف على حالها، وهذا يُعد انتصاراً شبه كامل لاحتجاج علماء الدين، كما كان لعلماء الدين دور كبير في الأزمات وعند وقوع البلاء (١).

وقد حظي علماء الدين بمكانة كبيرة في عهد السلطان المملوكي الظاهر برقوق (٧٨٤ - ٧٩١ هـ) فقد كان يوقرهم ويحبهم، ويقوم للفقهاء إذا دخلوا عليه.. وحتى هؤلاء الذين أخطأ في حقهم مثل الشيخ شهاب الدين الشافعي... الذي ما إن وصل إلى علمه أنه كثير الورع والزهد حتى أرسل خلفه واعتذر إليه، ومن ثم أعاده إلى بلده مكرماً (٢).

وفي عهد السلطان المملوكي المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ) ارتفعت مكانة العلماء؛ نظراً لأن السلطان نفسه كان متديناً، وكان يحب الدين

---

(١) شريفة المنديل: الحركات الداخلية في الدولة المملوكية الثانية (رسالة ماجستير، كلية الآداب للبنات في الرياض، ١٤٠٩ هـ) ص١١٧.

(٢) المرجع السابق ص ١٢٠.

وينقاد للشرع في جميع أموره وأحواله، يدلنا على ذلك أن السلطان نفسه كان يخرج وقت الأزمات واشتداد البلاء، وهو لابس جبة صوف بيضاء وعلى رأسه عمامة صغيرة، متجرداً من جميع ملابسه السلطانية الفاخرة، يخرج وبصحبته الخليفة والقضاة وسائر علماء الدين، ثم يصلي من غير سجادة، ويمرغ وجهه في التراب، ويبكي تضرعاً للَّه تعالى (١).

وقد كان للعلماء كلمة مسموعة وأمر نافذ لدى السلطان عند استشارته لهم في أي أمر؛ فعندما اجتمع السلطان بهم عام ٨٧١ هـ (١٤١٨ م) واستشارهم في أمر قتال يوسف، أفتوا بجواز قتاله نتيجة لسوء أفعاله وسوء سيرته، فما كان من السلطان شيخ إلا أن أسرع في تجهيز العسكر تنفيذاً لذلك (٢)، وعندما رفض القاضي جلال الدين البلقيني أن ينفذ ما أراده السلطان من الخطيب عند ذكر اسمه بالدعاء في الخطبة، أن يهبط درجة حتى يكون ذكر اسم الله تعالى ورسوله في مكان أعلى من المكان الذي ذكر فيه اسمه، لم يعارضه في ذلك، على الرغم من أن قصد السلطان من ذلك هو التواضع والخضوع للّه تعالى ورسوله الكريم، كما أن بعض الجوامع قد فعلت ذلك مثل جامع الأزهر وجامع ابن طولون (٣)، مما يدل على مدى قوة كلمة علماء الدين ونفاذها حتى على السلاطين أنفسهم وتوجيههم إياهم إذا أخطؤوا في الاجتهاد.

وكان السلطان الأشرف برسباي (٨٢٥ - ٨٤١ هـ) منقاداً للشرع يحب الفقهاء ويقربهم.. وكانت له ثقة بالقاضي عبد اللَّه عبد الباسط؛

---

(١) ابن إياس محمد بن أحمد: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج٢، ص ٤٦، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٤٠٣ هـ.

(٢) المصدر السابق، ٣٩/٢ - ٤٠. وانظر: شريفة المنديل: مرجع سابق، ص ١٢٥.

(٣) المرجعان السابقان.

فكان منقاداً له كما ينقاد الطفل إلى أبيه.. وله كلمة مسموعة لديه؛ يدلنا على ذلك أنه عندما تضرر الناس بسبب أمر السلطان بعدم زراعة قصب السكر إلا للسلطان فقط، تكلم معه القاضي عبد الله عبدالباسط في ذلك فعندئذ أذن للناس في زراعته(١).

وكان لعلماء الدين دورهم في توجيه السلطان إذا أخطأ في الاجتهاد، فمن ذلك أنه وقع الطاعون الكبير في الديار المصرية والذي سمي فيما بعد (بالفصل الكبير) لأنه انتشر في جميع نواحي بلاد العالم، فلما رأى السلطان ذلك اجتمع بالخليفة، والقضاة الأربعة ومشايخ العلم، واستفتاهم في ذلك، وقال: أخرج أنا والناس إلى الصحراء ونستسقي هناك، فعارضه أحد علماء الدين في ذلك وقال له إن ذلك ليس من فعل السلف، وإنما ذلك من سوء أفعال الناس وفتنتهم، حيث يبعثه الله تعالى عقوبة لهم على ذلك (٢).

وقالوا للسلطان: إنه لا بد من أن يمنع المظالم التي كثرت في البلاد، ويبطل المكوس ويمنع خروج النساء وهن متزينات إلى الأسواق، كما يأمر الناس بكثرة الدعاء والاستغفار، وانفض المجلس على ذلك، وعمل السلطان بكل ما قرره معهم.

وقد كان السلطان يستشيرهم في كثير من أموره التي يعجز أن يجد حلاً فيها، حيث يجد عندهم الحل الكافي والجواب الشافي، كما فعل عند استشارتهم فى أمر زكاة الأموال الظاهرة والباطنة للناس.

---

(١) ابن إياس: ١٥٣، وشريفة المنديل، ص ١٢٦.
(٢) المقريزي: السلوك ٢/٤ ص ١٠٢١ (نقلاً عن شريفة المنديل: مرجع سابق، ص ١٢٧).

وكان السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧ هـ) يكثر من فعل الخير والبر، شديد التدين، وقد بشر الصالحين بسلطنته.. ولقي في عهده علماء الدين كل حظوة وتقدير واهتمام، وكان يسعى لتطييب خاطرهم ويرضيهم بشتى الوسائل، فمن ذلك ما وقع بين قاضي القضاة سعد الدسيري، وبين قاضي القضاة شهاب الدين ابن حجر من تشاجر، وما أدى إليه ذلك التشاجر من عزل القاضي ابن حجر نفسه عن القضاء، فسعى السلطان إلى تطييب خاطره، فأعاده إلى منصب القضاء، وخلع عليه وأكرمه.

وكان يهتم بالعلم والعلماء وحضور الحفلات التي يقومون بها من أجل ذلك، ومن ذلك حضوره لحفلة قام بها شهاب الدين بن حجر بسبب انتهائه من تأليف كتاب (فتح الباري في شرح البخاري) [١].

وقد كان أكثر السلاطين المماليك يخضعون لشروط بعض القضاة، مما يدل على مدى المكانة الكبيرة التي وصلوا إليها، لدرجة أنهم وصلوا إلى الاشتراط على السلاطين [٢]. وفي عهد السلطان قنصوه الغوري (ت ٩٢٢) عارض علماء الدين رغبة السلطان في أخذ أموال الأوقاف والنفقة بها على الأمراء والمماليك.

وفي عهد السلطان الغوري - أيضاً - حدثت كائنة عجيبة لعلماء الدين عامة والقضاة بشكل خاص، وهي أنهم عزلوا جميعاً بسبب معارضتهم

---

(١) ابن إياس: المصدر السابق، ٢/٢٠٧، وشريفة النديل ١٣٠.

(٢) شريفة المنديل، مرجع سابق ١٣١

لرأي السلطان في مسألة شرعية، فغضب السلطان منهم وعزلهم جميعاً في وقت واحد، حتى إن مصر بقيت حوالي خمسة عشر يوماً لم يعقد فيها نكاح ولا وقع فيها أي حكم من أحكام الشريعة (١).

وتدلنا الحادثة على مدى جرأة علماء الدين، وعلى مدى قوتهم في مواجهة الظلم والخطأ، حتى ولو كان ذلك سبباً لعزلهم وإقصائهم عن وظائفهم.

ولم ينقص ذلك كله من مدى عزمهم وقوتهم، بل على العكس زاد من قوتهم ومقدرتهم، وزادت قيمتهم عند الناس والأمراء، فقد كان لهم الدور الكبير الفعال في تولي السلطان طومان باي فعندما قتل السلطان الغوري عام ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) وقع اختيار الأمراء على سلطنته فامتنع من ذلك غاية الامتناع ولكن الأمراء الحوا عليه وأجبروه بحجة أنه ليس هناك سلطان غيره، فوافقهم وخاصة بعد أن ضغط عليه الشيخ أبو السعود الجارحي، الذي أتى بالمصحف وحلف الأمراء عليه، على أنه إذا تسلطن الأمير طومان باي لا يغدرونه ولا يخامرون عليه ولا يطالبونه بنفقة، وينتهون عن مظالم المسلمين فحلفوا على ذلك، وانتهى الأمر على سلطنة طومان باي على ذلك (٢).

وقد بقي الأمر بين طومان والعلماء على ذلك، لكن عهد طومان باي لم يستمر إلا سنة واحدة، فقد استولى العثمانيون على مصر سنة ١٩٢٣ هـ (١٥١٧ م)، وحملوا الراية..

---

(١) المرجع السابق، ص ١٣٨، ١٣٩.

(٢) المرجع السابق نفسه.

لكن العلماء - على أي حال وكما تدلنا الوقائع السابقة - كان لهم وجودهم الشرعي، وقد أدوا واجبهم في صياغة المجتمع صياغة إسلامية.

وقد كان العثمانيون - في أصلهم - قبائل تركية فرت من بلاد آسيا الوسطى أمام الزحف المغولي، وقد أسلم جدهم (عثمان طغرل) واستوطن وأتباعه بلاد الأناضول، ومن ثم نجح في تشكيل دولة تنسب إليه، فاتخذ مدينة - (قره حصار) قاعدة له، واستقل بعد مداهمة المغول للسلاجقة، وأصبح ملاذ الكثير من المسلمين الذين يفرون من وجه التتار، وخاصة أنه أول من اعتنق الإسلام من أمراء قومه، ولهذا انتسب إليه الخلفاء من بعده دلالة على ارتباطهم بالإسلام وليس بالعصبية، وتوفي في سنة ٧٢٧ هـ، وكان خلفاؤه من بعده قد أخذوا على عاتقهم جهاد البيزنطيين. وتقدم العثمانيون في أوروبا وفتحوا مناطق واسعة، وأخيراً تمكن محمد الثاني من فتح مدينة القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ، وغدا اسمها (إسلام بول) ويُطلق عليها (استانبول) [١].

ولم يكن انتصار الغازي محمد الثاني في القسطنطينية هو أول نصر كبير يحرزه آل عثمان، ولكن (الرمز) أو القيمة المعنوية لهذا الانتصار قد طغت على كل ما عداها من القيم.

لقد أحرز الفاتح أول انتصاراته وأضخمها عل ضفاف البسفور، وهو ابن اثنين وعشرين عاماً (٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م)، فلم يداخله الغرور لما

---

(١) إسماعيل ياغي ومحمود شاكر: تاريخ العالم الإسلامي الحديث والمعاصر، الجزء الأول، ص ١٥١، ١٥٢. ط/دار المريخ الرياض، ١٤٠٤ هـ.

أحرزه، ولم يأخذه العجب بما أنجزه وحققه، فمضى للصلاة في مسجد (أياصوفيا) شاكراً للَّه على ما منحه من النعمة، وأطلق على المدينة المحررة فوراً اسم مدينة الإسلام (إسلامبول)، وأسرع إلى موضع استشهاد الصحابي (أبي أيوب الأنصاري) الذي استشهد في حصار القسطنطينية أيام معاوية بن أبي سفيان (٥٢ هـ) فأقام عليه مسجداً مبرهناً على أن الفتح العظيم لم يكن إلا امتداداً لجهاد العرب المسلمين من أجل رفع راية الإسلام والمسلمين.

وعرف الفاتح أن هذا النصر لا بد أن يستثير حقد الحاقدين من الفرنج والصليبيين فمضى مجاهداً في سبيل اللَّه، محتسباً الأجر والثواب على اللَّه، فأتعب الدنيا وأتعبته حتى خرج من الدنيا مخلفاً للمسلمين فخر الدنيا وعزة الإسلام [١].

**٤- التكامل بين أمراء المماليك والعلماء في مقاومة التتار**

لم تكد جحافل الصليبيين تنحصر عن الشرق الإسلامي حتى نكب العالم الإسلامي بمحنة أخرى أشد وأقسى... إنها محنة الغزو الكاسح المدمر الذي شنه التتار القادمون من بلاد منغوليا شمال شرقي آسيا.

وفي سنة (٦١٦ هـ) استولى المغول على مدينة بخارى، وفي العام التالي استولوا على سمرقند، وأخضعوا سائر بلاد ما وراء النهر التي كانت تشكل قسماً من الدولة الخوارزمية. ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد توغلت قوات المغول في بلاد خراسان واستطاعت أن تسيطر على كل من بلخ ومرو ونيسابور [٢].

(١) بسام العسلي: الفاتح القائد، ص ١١ - ١٢، دار النفائس، ط٦ ١٤٠٦ هـ.

(٢) د. حامد غنيم: الجبهة الإسلامية ج٣ - ص ٢٤، طبع مصر.

كان العالم الإسلامي في ذلك الوقت - بعد موجة صلاح الدين التوحيدية - قد انقسم على نفسه، وعاد إلى سيرته الأولى حتى داخل البيت الأيوبي، فسادته صور مريرة من الصراع والإقطاعات المتنافسة التي كانت تسمى (بالإمارات) وغابت روح الإسلام الموحدة، وحلت نعرات عنصرية وعشائرية مكانها.

وفي ظل هذا الوضع استطاع المغول بعد أن قضوا على ما وراء النهر وخراسان وأذربيجان وطبرستان والري وهمذان - أن يقضوا على دولة السلاجقة في آسيا الصغرى وأرمينية، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى زحفوا على عاصمة الخلافة العباسية بغداد، وأسقطوها بعد مقاومة لا تذكر، وأنهوا خلافة العباسيين في العراق سنة ٦٥٦ هـ، وسفكوا الدماء بطريقة وحشية لم تحدث في تاريخ الحروب من قبل، وزحفوا من بغداد إلى الشام التي كانت تحت سيطرة الزعيم الأيوبي الضعيف الملك الناصر، فاستولوا على حلب وحماة ودمشق بسهولة ويسر.

وبحكم المسيرة الطبيعية كان لا بد أن يسير التتار من الشام متوجهين نحو مصر ليذيقوها الدمار الذي أذاقوه لبقية بلاد المسلمين، وقد كان أمير مصر المظفر سيف الدين قطز، قد أدرك أن التتار سيهاجمون مصر بالضرورة، وقد صدق إدراكه فلم يلبث أن جاءته رسالة من هولاكو.. نقتطف منها ما يلي: «من ملك الملوك شرقاً وغرباً الخاقان الأعظم، باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بإنعامه ويقتلون من كان بسلطانه بعد ذلك لِيعلم

الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ويعود عليكم الخطأ فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكا، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد(١).

والرسالة - كما نرى - تكشف عن الخراب الذي عم العالم الإسلامي وحضارته على يد المغول، وهم يتباهون به، ويعتبرون هذا الخراب رسالتهم، وأنهم خلقوا من سخط الله، ليؤدب الله بهم المتهالكين على الدنيا، المتقاتلين على أهداف صغيرة، المتنابذين لأتفه الأسباب.

وقد كاد خرابهم يعم لولا أن جمع الله قلوب المماليك والشعب المصري على الجهاد، ووقف عالم فذ من علماء الإسلام هو العز بن عبد السلام الذي أهاب بالجميع أن يموتوا ذوداً عن دينهم، وأهاب بالمماليك أن يتنازلوا عن امتيازاتهم وبالشعب أن يندفع إلى الجهاد بالدم والمال.

وعندما طلب منه الأمراء المماليك أن يدعو طبقات الشعب إلى البذل، والعطاء في سبيل الجهاد، رفض الشيخ وقال: إن على الأمراء أن يكونوا القدوة، وأن يبدؤوا بأنفسهم في البذل والعطاء حتى يتأسى بهم الناس.. وقد حاول الأمراء المماطلة وقالوا: ليس عندنا أموال، فاطلب

---

(١) السلوك للمقريزي ج١/ق٢، ٤٢٧ - ٤٢٩ (نقلاً عن وثائق الحروب الصليبية والمغول الدكتور محمد ماهر حماده ٣٥٤) طبع بيروت.

من الناس أن يتبرعوا لنا، وللجيش. قال الشيخ: لا حتى تخرجوا ما عندكم، وما في قصوركم من الذهب والفضة، وما عند نسائكم من الحلي، وأن تخلصوا في البذل لله وحده، ليأتيكم منه النصر.

وحرك قلوبهم فتنبه فيها الإيمان، فأخرجوا ما عندهم، ورأى الناس ذلك فتسابقوا إلى البذل والجود، وكثرت الأموال، فأعدوا العدّة، وجمعوا السلاح، وأُقيمت معسكرات التدريب في كل مكان، واهتزّت البلدة بالهتاف والتكبير، حتى لكأنَّ كلّ مصري قائد مظفر، وحتى صار كل مصري يشتهي الوصول إلى المعركة (١).

وكان النصر في موقعة عين جالوت (٦٥٨ هـ) بفضل هذا التكامل بين العلماء والأمراء وبفضل شعار وا إسلاماه الذي رفعه سيف الدين قطز - رضي الله عن الجميع.

**٥ - من نماذج التكامل بين الساسة والدعاة في المغرب وإفريقيا:**

نجح المرابطون الصنهاجيون في المغرب العربي الإسلامي (٤٣٠ - ٥٤٠ هـ) في إقامة دولة المرابطين التي كانت - بحق - تجربة رائعة للتكامل بين السياسة والدعوة وكانت إحدى أعظم الدول الإسلامية في إفريقية والمغرب العربي.

وقد قامت هذه الدولة على أساس العناق التام بين الدولة والأمة على أساس من كتاب الله وسنة رسوله والجهاد بهدف إقامة مجتمع إسلامي ونشر الإسلام في إفريقيا. وقد وضعوا نصب أعينهم تربية

(١) علي الطنطاوي رجال من التاريخ، ص٢٠٢، طبعة مؤسسة الرسالة.

الشعب على أسس إسلامية جادة، والتقدم به للقضاء على الوثنيات في إفريقيا وحركات المرتدين وأدعياء النبّوة في قبائل غمارة وبرغواطة، وكان عبد الله بن ياسين - الأب الروحي للدولة - يلقب بمحيي السنّة وقامع البدع والضلالات.

وقد أحدث (عبد اللّه بن ياسين) هزّة في حياة العامة في هذه المنطقة، فغيّر بعض العادات، وأحيا الروح الدينية، وأقام حدود الإسلام، وعمل على نشر لواء المساواة بين الناس [١].

وكان رجال الدولة المرابطية على هذا المنهج، ومنهم يحيى بن إبراهيم، ويحيى بن عمر، وأبو بكر بن عمر اللّمتوني، ويوسف بن تاشفين، وغيرهم. وقد علّموا الناس في الأربطة الدين والعمل؛ فاعتمد رجال الرباط على أنفسهم في الحصول على كل ما يحتاجون إليه عن طريق صيد ما يحتاجون إليه من البّر والبحر. كما كانوا يعدّون طعامهم بأنفسهم، مع الاكتفاء في الطعام بأقل القليل، وبالخشن من الثياب؛ فقد كانت حياتهم البسيطة متواضعة؛ خشنة، فهم لا يبتغون غير الدار الآخرة، وآلوا على أنفسهم الإخلاص، والتوبة، والتعبّد[٢]. وقد تمخّضت جهود المرابطين عن إسلام شعوب (التكرور) بغرب إفريقيا التي كانت أول الزنوج الذين اعتنقوا الإسلام، في حركة المرابطين الأولى، في أيام الشيخ عبد اللّه بن ياسين. فعمل التكرور بدورهم على متابعة الدعوة

---

(١) د. عصمت عبد اللطيف دندش: دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا، ص ٦٦ ط، دار الغرب ١٩٨٨ م. وانظر: إبراهيم الجمل: الإمام عبد اللطيف بن ياسين ص ٦١، دار الإصلاح بالدمام.

(٢) د. عصمت عبد اللطيف دندش: المرجع السابق، ص ٧٤.

إلى هذا الدين، وأصبحوا دعاة للإسلام بين قبائل الولوف، والولبي، والماندنجو، ونشروا المدارس الإسلامية في السودان الغربي فاستوعبت هذه القبائل الإسلام، وأخذوا من حضارة المغرب، وتأثروا بالشريعة الإسلامية، واستعانوا بالدعاة من المرابطين في بلاطهم، لتعليمهم الشريعة والقراءة والكتابة، حتى إنهم قلّدوهم في ملابسهم. وفي موجة اندفاع المرابطين في عهد يوسف بن تاشفين، وجهودهم في نشر الإسلام في منتصف القرن الحادي عشر(السادس الهجري) اعتنق حكام ولاية كانجابا (من الماندنجو) الإسلام وأخذوا يتوسعون، ويمدّون نفوذهم إلى الجنوب، وإلى الجنوب الشرقي، فتكونت بعد ذلك من هذه الأراضي إمبراطورية مالي.

وانتشر مسلمو غانة الذين اعتنقوا الإسلام في اتجاه ديارا، وغلم، ومسينا، واتجهوا خاصة إلى ديا، ومن ديا تحركت مجموعات من الديولا الذين حملوا الإسلام إلى الحدود الشمالية لمنطقة الغابات، وهناك أنشؤوا مراكز إسلامية مثل (بيجو) بالقرب من جنوب نهر الفولتا الأسود، ومن هنا انتشرت المدن التجارية مثل بوندونكو، والكونج [١]، وهي مدن تجارية قامت الحياة فيها على أساس الشريعة الإسلامية والرباط في سبيل الله.

وإذا ما عبرنا منطقة الشمال الإفريقي ودخلنا إلى إفريقيا السوداء، فسوف نجد جهوداً شعبيّة إسلاميّة ناجحة تكررت في الأمكنة والأزمنة المختلفة... وحسبنا هنا في عملية التحليل التي نقوم بها لندحض الآراء

(١) المرجع السابق، ص ١٢٦ - ١٤٧، وكل هذه القبائل في السودان الغربي (غرب إفريقيا)، وقد سيطر الماندنجو على نهر النيجر، والأماكن المطلة عليه وأقاموا كيانات سياسية.

العموميّة غير العلميّة أن نرصد بعض المحاولات البارزة التي نجح أصحابها في نشر كلمة الله وتطبيق الشريعة الإسلامية، ومقاومة الجهل والبدع والانحلال.

لقد شهدت بلاد الهوسا في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (١٥ للميلاد) تحوّلات خطيرة وحركة إصلاحيّة عظيمة، قادها بعض السلاطين كالسلطان (كانو) محمد رمفا، وسلطان (كتسينا) محمد كورو ، وسلطان (زاريا) محمد رابو، الذين اعتنوا اعتناء كبيراً بإحياء الشعائر الدينية ومحاربة الوثنية وإضفاء الثوب الإسلامي على النظم السياسية، بالإضافة إلى توسيع قاعدة التعليم وتشجيع العلماء لنشر العلم في بقاع البلاد المختلفة، ونخصّ في هذا المجال السلطان محمد رمفا الذي وضع اللبنة الأساسية للبنيَة السياسيّة والاجتماعيّة والشرعية للدولة، والذي غيّر من ملامح الدولة شبه الوثنيّة، وأدخل نظام الدواوين الإسلامية في سلطنته [١].

وقد تزامن عهد هذا السلطان مع زيارة أحد كبار العلماء المجاهدين من الشمال الإفريقي لبلاد السودان الأوسط والغربي وخاصة أغذر وكاتسينا، وكانو، وستفي.. وذلك الشيخ هو محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني التواتي.

وتذكر بعض المصادر أن المغيلي أنشأ مدرسة إسلامية في كاتسينا، وجلس يعلّم الناس شؤون دينهم.. وأثمرت مجهودات محمد بن

(١) أحمد محمد كاني، الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا،، ٣٥، ط١، الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٧ هـ، مصر.

عبد الكريم المغيلي في تخريج عدد كبير من العلماء، وتأسيس مدارس علمية كثيرة [١].

وفي الربع الأخير من القرن الثاني عشر الهجري (الثامن عشر الميلادي) ظهرت حركة الشيخ (عثمان بن فودي) النيجيري (١١٦٦ هـ - ١٢٣٢ هـ) (١٧٥٢ - ١٨١٧ م)، وكانت تقوم على نشر الإسلام وتطهيره من البدع والخرافات التي لحقت به.

وكان الشيخ (عثمان بن فودي) في بداية دعوته يحدث الناس في خمسة أمور رئيسة: أولها: ما فرضته الشريعة من الأصول والفروع الظاهرة والباطنة. وثانيها: ما يتعلق باتباع السنة وترك ما دونها من البدع والمنكرات. وثالثها: في ردّ الأوهام والآراء الخاطئة في أذهان الطّلبة مما تلقوه من علم الكلام وتكفيرهم عامة الناس بلا مبرر شرعي. ورابعها: يدور حول إخماد البدع الشيطانية التي أحدثها الناس في دين الإسلام ورد العوائد المخالفة للشرع.

ويختص الأمر الخامس: بتعليم العلوم الشرعية وتبسيط مشكلاتها وتقريبها من فهم العوام.

وعندما تكاثر أتباعه، وهاجر إليه الناس من أقاصي البلاد مستمعين لوعظه ومقتدين بسلوكه، حسده علماء زمانه، وأظهروا له العداوة والبغضاء ووشوا به لدى الحكّام لتعطيل مسار دعوته.. وبالرغم من ذلك فلم يكترث الشيخ عثمان فودي بكيدهم، ومضى يحاربهم باللسان والقلم داحضاً افتراءاتهم ومبلغاً رسالته بصدق وإخلاص أذهل الناس جميعهم.

(١) المكان السابق.

ولقد استطاع الشيخ عثمان بن فودي بعد فترة وجيزة من قيام دعوته تكوين جماعة تسمى بـ (الجماعة)، وكان قوامها تلاميذ الشيخ نفسه، الذين تلقوا العلم على يديه، والذين صقلهم فكرياً، وهيّأهم ذهنيّاً وعلميّاً للقيام بمسؤولياتهم في التربية والدعوة إلى دين الله [١].

وفي سبتمبر ١٧٨٨ م استدعى سلطان غوبر باو علماء بلاده وكان من بينهم الشيخ عثمان بن فودي للاجتماع به في مناسبة عيد الأضحى، ولما اجتمعوا به في مكان يسمى (مغمي) حاول سلطان غوير إرضاء الشيخ عثمان بن فودي بإعطائه خمسمائة مثقال من الذهب كمكرمة له.. لكنّ الشيخ عثمان بن فودي على غير عادة العلماء الآخرين، الذين كانوا معه، رفض تلك الهديّة، وطالب بدلاً منها بخمسة أشياء:

١ - أن يسمح له بالحريّة في التجّول للدّعوة في سبيل الله.

٢ - ألا يُعترض سبيل أيّ شخص يريد الاستجابة للدّعوة.

٣ - أن يوقّر كلّ عالم يلبس العمامة.

٤ - أن يطلق سراح المسجونين «السياسيين».

٥ - ألاّ تفرض ضرائب باهظة على الرعيّة [٢].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن سلطان غوبر «باو» قد قبل هذه «الشروط»، وكان هذا الموقف نقطة انطلاقة لدعوة الشيخ عثمان بن فودي، واعتبر أولّ انتصار سياسيّ، ودعويّ على حكّام بلاد الهوسا.

(١) أحمد محمد كاني: الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا، ٨٢، ٧٣.
(٢) المرجع السابق، ص ٧٦.

وهكذا قدّم الشيخ عثمان بن فودي، تجربة لحركة إسلاميّة شعبيّة إصلاحيّة رائعة، كان التعاون فيها واضحاً بين بعض الساسة وعلماء الدين، وقادة الدعوة.

## ٦ - صور للتكامل الدعويّ السياسيّ من الهند:

كان من أبرز الظواهر المألوفة في تاريخ الإسلام في شبه القارة الهنديّة ذلك التكامل بين الدعوة والدولة، وبين رجل الحكم ورجل العلم، وتعاونهما معاً في السّلم وفي الحرب، وعندما تقع انحرافات كان الجميع يتعاونون على إصلاحها.. وذلك بطبيعة الحال - عندما ينجح الدعاة في استعمال وسائل الحكمة ويصلون إلى قلوب أولي الأمر وعقولهم، وقد كان السلطان محمود الغزنوي (الفاتح الثاني للهند) على هذا النّحو، وبعده بقرن مشى السلطان شهاب الدين الغوري في الطريق نفسه، وانتشرت في عهده المساجد في الهند انتشاراً كبيراً.

وبينما كان السلاطين الغزنويون (٥١ - ٥٨٢ هـ/٩٦٢ - ١٨٦ م) ثم الغوريون (٥٤٣ - ٦١٢ هـ) يفتحون البلاد بوسائل الفتوحات، كان الدعاة من أمثال الشيخ معين الدين الجشتي يفتحون العقول والقلوب بالحكمة والموعظة الحسنة.

وسار المماليك (٦٠٢ - ٦٨٩ هـ) (١٢٠٦ - ١٢٩٠ م)، وعلى رأسهم قطب الدين صاحب منارة قطب، ثم الخلجيون (٦٨٩ - ٧٢١ هـ) (١٢٩٠ - ١٣٢١ م) وعلى رأسهم علاء الدين الخلجي، وآل تغلق (٧٢١ - ٨١٤ هـ/١٢٩٩٠ - ١٤١١ م) واللودهيون (٨٨٣ - ٩٣٢هـ/١٤٤٨ - ١٥٢٦ م)،

في الطريق نفسه؛ أي طريق المزج بين الدعوة والدولة، وتبجيل الدولة لدعاة الإسلام تبجيلاً كبيراً.

ولقد روي أن السلطان المملوكي شمس الدين الألتمش كان يستأذن في الدخول على الشيخ بختيار الكعكي، ثم يسلم عليه بعد دخوله، وكأن شمس الدين هو الملك.

وقد روي أن المسجد الذي كان يقيم فيه الزاهد نظام الدين البدايوني كان عامراً بالزّوار والقصّاد أكثر من قصر الملك!! (١).

ومن الحكام المجاهدين الذين اعتمدوا على الدعاة والعلماء، وتكاملوا معهم تكاملاً رائعاً الملك مظفر بن محمود الذي، ولد يوم الخميس ٢٠ شوال سنة ٨٧٥ هـ في الكجرات، ونشأ نشأة عالم عابد، في أسرة أكثر ملوكها صالحون متعبّدون، وقرأ ما كان معروفاً من كتب العلم، فبرع في الحديث، وقد ولي مظفر الملك في رمضان سنة ١٩١٧ هـ، وهو في الثانية بعد الأربعين، وحكم إلى أن توفي في جمادى الأولى ٩٣٢ هـ، فكانت مدّة سلطانه خمس عشرة سنة، مرّت على الناس ممّا رأوا فيها من عدله وسخائه، وحزمه وتقواه، كأنها خمسة عشر يوماً.

وكان يتبع السنة، ويعمل بما حفظ من الأحاديث الصحيحة، في كل صغيرة وكبيرة، من أمور نفسه وأهله وأمور الرعيّة، ويدني العلماء ويصحبهم، ويكرمهم، ويجتمع إليهم، ولم يكن يحسن الظّنّ بمشايخ الطرق، ثم مال إليهم بعض الميل في أواخر أيامه، وكان يخاف اللّه،

---

(١) د. عبد الحليم عويس: صفحات من جهود المسلمين في الحضارة الهندية، ص٥٥ – ٥٦.

ويخشى أن يكون قد جانب الشرع، وكان كثير الإنفاق في الخير، فسأل العلاّمة (خرم خان) وكانت له ثقة به، وقال له: لقد نظرت فيما أنفقه فإذا أنا بين إفراط في صرف هذا المال، وهو مال المسلمين، وتفريط في منعه، فإذا سألني ربي عن ذلك فبماذا أجيب؟

ومن المآثر التي نسبت إلى آل طغلق جهود الملك الصالح المصلح فيروز، كما أنه ظهر في أحمد أباد ملوك ذكروا الناس بالخلفاء الراشدين كمظفر الدين الحليم الكجراتي.

ويروى أن علاء الدين الخلجي؛ أكبر ملوك الهند في زمانه، استأذن الشيخ الدهلوي في أن يزوره فلم يأذن الشيخ، مما يدل على المكانة الرفيعة للعلماء، ويدل على تديّن الحكام وتواضعهم أيضاً.

ولما مرض شيخ الدولة آبادي المفسّر وأشرف على الموت عاده السلطان إبراهيم الشرقي، ودعا عند رأسه أن يكون هو (أي السلطان) فداءه من الموت.

ويعدّ المصلح المجدّد الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (٩٧١ - ١٠٣٤ هـ) مثلاً رائعاً في إصلاح الحكام وذوي النفوذ، وبجهوده الدعويّة الحكيمة نجح في القضاء على آثار فتنة الإمبراطور أكبر الذي كان يميل إلى الهنادكة.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الندويّ - رحمه الله - يبدي إعجابه الشديد بالمنهج الدعوي الحكيم للشيخ السرهندي، ويقول بوضوح:

«أنا تلميذ صغير لتاريخ الإصلاح والتجديد، وإن هواياتي وإن كانت

متعدّدة ولكن تأتي في مقدمتها هوايتي في التاريخ، وخاصّة تاريخ الإصلاح والتجديد، فما رأيت تجربة في القرون الأخيرة - أعني بعد القرن الثامن على الأقل - أنجح وأكثر توفيقاً من تجربة الإصلاح والتجديد التي قام بها الشيخ أحمد السرهندي في القارة الهندية» (١)

ويتساءل الشيخ الندوي قائلاً:

«كيف استطاع هذا الرجل الأعزل المجرد من كلّ سلاح، والمجرد من كل ثروة ماديّة، والمجرّد من كل جيش، أن يحول التيار الإلحادي في الإمبراطورية المغوليّة الكبرى في الشرق، وفي البلاد العربية والتركية، وذلك بتأثير الخلل الذي أحدثه الملك القوي القاهر الذي اتسعت له الفتوحات الواسعة، وهو جلال الدين أكبر، وكان هذا الإمبراطور قد نشأ في قلبه عداء للإسلام وحقد عليه، ومن الأمثلة على ذلك أنه ما كان يستطيع أحد في بلاطه أن يسمّي ابنه محمداً، لأنه كان يكره هذا الاسم (لعنه اللّه) وهنالك قيض الله - تعالى - لمكافحة هذا التيار، ومقاومة هذه الفتنة العظيمة الشيخ أحمد السرهندي فجلس في ركن من أركان بيته وبدأ يفكر في شق الطريق لمكافحة هذا التيار فجعل يراسل الملك وأهل البلاط من الوزراء الكبار، والأمراء العظام، ويثير فيهم النخوه الإسلامية والحميّة الدينيّة، وبقى هكذا مدة طويلة يراسل ويكتب ويقابل حتى كسب عدداً كبيراً من الأمراء؛ فكانوا أنصاره وتلاميذه، ومات (جلال الدين أكبر) وخلفه ابنه نور الدين جهانكيز، وقد

(١) انظر الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي: حكمة الدعوة وصفة الدعاة، نشر المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء.

عرف (جهانكيز) أن الشيخ السرهنديّ من طراز آخر، وأنه عالم رباني مخلص، زاهد في الدنيا، محب للغير، فأحبه وأجلّه، وبدأ يهتم برفع شعائر الإسلام وبناء المساجد في المناطق والقلاع التي كان يفتحها، واحترام الإسلام والمسلمين.

لم يزل يجري اتصالاته بالأمراء المسلمين وكبار الوزراء حتى كوّن مجموعة مؤمنة ذات حمية دينيّة فقلب التيّار، وغيّر مجرى التاريخ، فكان جهانكيز أفضل من أبيه أكبر، وكان ابنه (شاهجهان) أفضل من أبيه جهانكيز، إلا أنّه أنفق ثروة الهند في بناء القلاع والمعمار والفنون.

ويلّخص الشيخ أسباب نجاح السرهندي فيقول:

هناك عاملان أساسيّان في نجاح رجل الدعوة: أحدهما: تملّك الفكرة وسيطرتها على نفسه، والثاني: التجّرد عن المطامع الدنيويّة والزهد في المناصب والملك [(١)].

وقد أكرم اللَّه الهند الإسلامية عندما اعتلى عرش السلطنة (أورنكزيب عالمكير) (١٠٦٨ - ١١١٩ هـ / ١٦٥٨ - ١٧٠٧ م)، بعد أن عمّ الخراب البلاد الإسلامية؛ فأبطل البدع، وحاسب من شرب الخمر ولعب الميسر، وبعث بالمحتسبين لمراقبة تعاملات الناس، وعمّر المساجد المخرّبة، وأمدّها بالخطباء والوعاظ، وكان أفضل بذرة أثمرتها جهود الشيخ السرهندي - رحمه اللَّه - كما أوقف أورنكزيب حياته على نشر الإسلام ورفع ألويته، وقضى أيامه على خير ما يقضيها مسلم تقي

(١) المرجع السابق.

عابد؛ فكان ينزل عن دابته فيصلّي بخشوع وخضوع، وأبعد عن بلاطه الموسيقّيين والمطربين، هذا فضلاً عن تجمله بالصبر والتواضع.

وقد نجح أورنكزيب في القضاء على حركات الانشقاق بدرجة كبيرة، والقضاء على الزندقة التي كانت أثراً من آثار جدّه المنحرف عن الإسلام الامبراطور جلال الدين أكبر، كما أبطل ثمانين نوعاً من الضرائب، وبنى المساجد في أقطار الهند، وأقام لها الدعاة والمعلمين، وأدنى الفقهاء والعلماء من مجلسه، وبنى لهم المدارس، وأعطاهم الأعطيات شريطة أن يعملوا، وقام بتدوين الأحكام الشرعية وتقنينها فيما يسمى (بالفتاوى العلمكيرية) وهي الأم لمجلة الأحكام العدلية (العثمانية).

وهكذا امتزج الحكم بالفقه والعلم، وتعاون أولو الأمر وأولو الرأي، وقادة علوم الدين، وقادة سياسة الدنيا.. وبهذا التكامل الذي ظهر بوضوح في التاريخ الهندي الإسلامي تقدّم الإسلام، فدخل الناس في دين اللّه أفواجاً، وقدمت الهند الإسلامية صفحات رائعة من صفحات الحضارة الإسلامية.

وكما يذكر سماحة الشيخ أبو الحسن الندويّ (رحمه اللّه) فإن من يقرأ سيرة (أورنكزيب عالمكير) يجد فيها نواحي علميّة وعمليّة جمّة، ويجدها حافلة بجلائل الأعمال طيلة خمسين سنة لم تتوقف جهوده فيها يوماً واحداً، كما لم تتوقف فتوحاته العظيمة وإصلاحاته الكبيرة، فضلاً عن تقشّفه وصلابته واستقامته ودقّته في تعظيم أوقاته والمحافظة على الفرائض والسنن واشتغاله بالعبادات والعلم، مع إشرافه الدقيق على مملكته التي لا تدانيها في سعتها مملكة أخرى في عصره... لقد كان أورنكزيب - بحقّ - معدوم النظير في علوّ الهمة وقوّة الإرادة بين ملوك العالم!! (١).

---

(١) د. عبد الحليم عويس: صفحات من جهود المسلمين في الحضارة الهندية، ٥٢ - ٥٦.

## ٧ - دور الزهّاد الصالحين في مؤازرة السلطة ومقاومة الفساد

كانت للمجاهد الزاهد (سهل التستريّ) جهود ضخمة ضد جماعات المبتدعة المارقين أدعياء الصلاح والزهد الذين يطلبون الدنيا - مع التظاهر بالزهد - من أخسّ الطرق، وأسوأ السبل، وقد أصدر كتاباً عنوانه: «المعارضة والردّ على أهل البدع وأهل الدعاوى في الأحوال» (١).

وقد وقف كثير من الزهاد في مواجهة موجات الفساد والمنكر والنفاق والتصوّف المنحرف والبدعيّ. وللتستري في كتاب (التراث الصوفي) كلام طيّب في هذه المجالات، ومنه قوله: «واعلموا يقيناً أنكم لن تجدوا في زمانكم من عمل بعلمه إلا ما شاء اللّه، وكلّ من كان أكثر علماً كان أسوأ حالاً قيل: وكيف ذلك؟ ولم صار هكذا؟ قال: «لأنهم صيروا علمهم مأكلة لحم، أو طلب رياسة، أو متاع الدنيا، أو رياء وسمعة، وتركوا الأمر الأول، وآثروا الدنيا على الآخرة» (٢).

ويقول التستريّ أيضاً : «سيكون في آخر الزمان العلماء ثلاثة أصناف: صنف منهم عرف المنكر فأنكره بقلبه، وقوم منهم عرفوا المنكر فيهم فخالطوهم عليه، وقوم عرفوا المنكر فأنكروه بالعلم جهدهم، وهؤلاء أعز من الكبريت الأحمر(٣).

وقد كان الإمام الحسن البصري (رضي الله عنه) إماماً في باب تغيير المنكر

---

(١) نشره الدكتور محمد كمال جعفر بالقاهرة، سنة ١٩٨١ م.

(٢) سهل التستري: التراث الصوفي ٢/٩٣، القاهرة، ١٩٨٦ م. بتحقيق محمد كمال جعفر.

(٣) من التراث الصوفي ٢/١٣٥.

بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد كان يفضل سياسة تغيير المنكر بأقل قدر ممكن من الخسائر؛ لأن درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، فلهذا كان يقول للناس:

«إن الحاكم الظالم إما أن يكون عقوبة من الله، والعقوبة لا ترد بالثورة عليها، وإما أن يكون بلاء يستأهل الصبر حتى يحكم الله».

وحين سنحت للحسن البصري الفرصة ليعظ الوالي ابن هبيرة نصحه بأحكم قول وأشجعه على خلاف مداراة صاحبيه في نصيحة ابن هبيرة وهما: ابن سيرين والشعبي. ومن الطريف أن ابن هبيرة أعطى الحسن أعطية أكثر من زميليه مع أنهما قالا له قولاً ليناً، فقال زميلاه تعليقاً على ذلك: سفسفنا له فسفسف لنا[١].

وعلى خطا الحسن البصري كان الفضيل بن عياض مع خلفاء بني العباس نصحاً وتوجيهاً وكان يقول: لو أن لي دعوة مستجابة ما صيرتها إلا في الإمام (يقصد أن في صلاح الإمام صلاحاً للعباد والبلاد).

وحكايات الفضيل بن عياض مع هارون الرشيد عديدة ومتنوعة، وعندما قال له هارون الرشيد: عظني، قال له الفضيل: ماذا أعظك؟ هذا كتاب الله بين الدفتين: انظر ماذا عمل بمن أطاعه وماذا عمل بمن عصاه؟.. إني رأيت الناس يغوصون على النار غوصاً شديداً ويطلبونها طلباً حثيثاً... أما والله لو طلبوا الجنة بمثلها أو أيسر لنالوها. فقال له هارون: عد إليَّ، قال الفضيل: لو لم تبعث إليَّ لما أتيتك وإن انتفعت بما

---

(١) انظر الحلية ٢/١٤٩ نقلاً عن الدكتور أبي اليزيد العجمي (الأصول الفكرية للجانب الاجتماعي في التصوف الإسلامي) رسالة دكتوراه بدار العلوم ص ٢٤٥، جامعة القاهرة.

سمعت مني عدت إليك... وقد قال له الرشيد يوما: ما أزهدك! فقال له الفضيل: أنت أزهد مني.. فقال الرشيد: وكيف ذلك؟!! قال الفضيل: لأني أزهد في الدنيا، وأنت تزهد في الآخرة. الدنيا فانية والآخرة باقية [١].

وقد كانت (لذي النون المصري) مواقف أيام الخليفة المتوكل العباسي، كما كانت (لحاتم الأصم) مواقف أيام الرشيد أيضاً . وقد رفض (سهل التستري) أن يعالج الحاكم (ابن الصفار) حتى يرد كل مظلمة للناس عنده، ثم لما عالجه عرض عليه مالاً وثياباً فلم يقبلها[٢].

وقد كانت للإمام أبي حامد الغزالي مواقف رائعة في الثبات على الحق والجهر في وجه المنكر، دون أن يخشى في الله لومة لائم.. ومن ذلك نصحه لأحد ملوك خراسان، فقد قال له: يا أسفاه! إنّ رقاب المسلمين كانت تسقط بالمصائب ورقاب خيلك كانت تسقط بالأطواق الذهبية. كما كتب الغزالي إلى أمير مدينة طوس بخراسان يقول له: «اعلم أن مدينة طوس أصبحت خراباً بسبب المجاعات والظلم، وأن دعاء أهل المدينة (طوس) مجرب بالخير والشر.. فاتقِ الله».

وقد كانت للشيخ الجيلاني مواقف مع بعض الخلفاء. وعندما ولى الخليفة المقتفي قاضياً ظالماً قال له من فوق المنبر: «ولّيت على المسلمين أظلم الظالمين، ما جوابك عند ربّ العالمين أرحم الراحمين».. فارتعد الخليفة وبكى وعزل القاضي الظالم» [٣].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ترجمة رقم ٥٠٤.

(٢) د. أبو اليزيد العجمي: الأصول الفكرية للجانب الاجتماعي في التصوف الإسلامي (رسالة دكتوراه) ص ٢٥١.

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٠.

وعلى الــدرب نفسـه مـن الجـهاد بالكلـمة والأمـر بالمعـروف، كان أبو الحسن الشاذلي، الذي كانت له مواقف مع السلاطين كثيرة مشهورة...

وقد كان للزهّاد الملتزمين بالكتاب والسنة في اليمن خلال القرنين السادس والسابع الهجريّين أثرهم البالغ في تغيير نظام الحكم وأسلوبه.

والمؤرخـون يذكـرون تلك الصـداقـة الوطيـدة بين مـؤسس الدولة الرسوليّة الملك المنصور بن عمر بن علي بن رسول (٦٢٩ - ٦٤٧) وبين الفـقيـه الزاهد مـحـمـد بن أبي بكـر الحكم (م: ٦١٧ هـ) وصـاحـبـه الزاهد محمد بن حسين الجليني (م: ٦٢١ هـ) ويقال إنهما اللذان قويّا عزمه في الاستيلاء على الحكم بعد مشاهدتهما تعنّت نظام الحكم السابق وفساده، وبهذا تدين الدولة الرسولية للزهّاد الصالحين في ظهورها (١).

وأياً كان الأمر، فقد اجتهد كثير من الزهّاد في تغيير الأحوال وتربية أنفسهم وذويهم، وفي الإصلاح الإجتماعيّ بالوسائل الحكيمة.. وقد وجدوا أن من بين منافذ التغيير الاجتماعي نصح الحكام وتوجيههم وهو أمر يتطلب صدقاً مع الله وشجاعة لا يملكها إلا الزاهد في الدنيا (٢).

وقد كان الطابع الروحي بارزاً في فكر الفيلسوف المجدد والمؤسس الفكري والروحي لدولة باكستان (محمد إقبال) صاحب فلسفة الذات المسلمة.

---

(١) المرجع السابق: ص ٣٥٥.

(٢) أبو اليزيد العجمي: الأصول الفكرية للجانب الاجتماعي في التصوف الإسلامي (رسالة دكتوراه بدار العلوم) ص ٢٥.

وقد عرف «إقبال» حقيقة الإنسان وقيمته فأراد أن يلقنه درس الإنسانيّة الحقّة بما تنطوي عليه من جانب إلهي، وقد دعا الناس إلى أن يتخلقوا بأخلاق اللَّه، وأن يكتسبوا صفاته حتى يكتب لهم الخلود.. «وهنا تصبح العقبات والمشكلات في طريق الرقيّ الروحيّ للإنسان لا شيء، فلا الزمان ولا المكان ولا العلم الماديّ بأسره، ولا الشيطان نفسه بقادر على أن يثني الإنسان عن عزمه على الرقيّ الروحيّ الدائم وشوقه إلى الاتصال بالحقيقة الخالدة والوصول إلى اللَّه(١).

وكما يقول أستاذنا الشيخ أبو الحسن الندوي: فقد تربى إقبال في مدرستين إحداهما تقليدية هي مدرسة الشهادات، أما المدرسة الأخرى فهي مدرسة توجد في كل مكان، وهي أقدم مدرسة على وجه الأرض، إنها مدرسة داخلية تولد مع الإنسان فيحملها الإنسان معه في كل مكان هي مدرسة القلب والوجدان، وهي مدرسة تشرف عليها التربية الإلهية، وتمدها بالقوة الروحيّة (٢)، ومعلمو هذه المدرسة يتمثلون في الإيمان والحب الجارف للرسول (ﷺ) والقرآن بما له من مآثر لا توجد إلا فيه (٣).

## ٨ - دولة الدعوة في جزيرة العرب

كان القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر المسيحي بداية عصر الدعوة الإصلاحيّة التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

---

(١) د. محمد السعيد جمال الدين: رسالة الخلود لإقبال، المقدمة. وانظر د. أبو اليزيد العجمي: مجلة المسلم المعاصر، عدد ٢٣، الكويت، دراسة عن الزهاد المسلمين.

(٢) روائع إقبال ص ٢٥، وما بعدها، ط. الكويت، ١٩٧٨ م.

(٣) المرجع السابق.

وفي هذا القرن كان العالم الإسلامي يسير على النهج نفسه الذي سار عليه في سابقه من انفصال عن الحقيقة الإسلامية، ومن سيطرة لمفاهيم مغلوطة عن العقل الإسلامي، ومن تمزق سياسي وفوضى اقتصادية وهبوط اجتماعي.. بحيث أصبح الحال - كما يسميه المفكر الجزائري مالك بن نبي - حالة (القابليّة للاستعمار) (١)، إنّها الحالة التي تتوافر فيها مواد خام بشرية تمتاز بـ (البطالة)، و (الجهل)، و(الانحطاط الخلقي) المتولّد من انحطاطين: أحدهما: فكريّ، والآخر: نفسيّ.

وقد ولد محمد بن عبد الوهاب سنة (١١١٥ هـ ) بالعينية شمال غرب الرياض (٢)، وعاش حياة حافلة بالتعلّم والارتحال في طلب العلم، وقد حفظ القرآن قبل بلوغه العاشرة (٣)، وكان سباقاً في عقله وجسمه.. وقد جاهد في سبيل تكوين رؤية سلفيّة تعيد حال الأمّة الإسلاميّة إلى الصلاح، حتى تنجح في تحقيق عودتها إلى مكانها التاريخي..

وظلّ كذلك حتى وافته منيتّه سنة ١٢٠٦ هـ (١٧٩٢م) بعد أن شهد آثار إصلاحه في الجزيرة العربية، وبعد أن انتقل البدو - أمام عينه - من حياة الجاهليّة إلى حياة الحاضرة، واستنارت نجد والجزيرة العربية بدعوته العظيمة(٤).

وقد تلخصت الجوانب الإصلاحيّة في دعوة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب في الآتي:

---

(١) انظر شروط النهضة: فصل (عامل القابلية للاستعمار)، ص ٢٢٩، الطبعة الثالثة.

(٢) أحمد عبد الغفور العطار: محمد بن عبدالوهاب، ص ٣١. ط٢، مكتبة العرفان، بيروت.

(٣) أحمد بن حجر أبو طامي: الشيخ محمد بن عبد الوهاب، مطبعة الحكومة بمكة، ١٣٩٥ هـ.

(٤) أحمد عبد الغفور العطار: محمد بن عبد الوهاب، ص ١٠١.

١ - تصحيح عقيدة المسلم وتطهيرها من مظاهر الشرك التي علقت بها، وذلك بالعودة إلى عقيدة التوحيد كما ورد في الكتاب والسنّة الصحيحة.

٢ - رفض الخرافات التي أُقحمت على الإسلام، في مجالات التوسّل والاستغاثة ومقاومة الخرافات والبدع.

٣ - فتح باب الاجتهاد - عند توافر وسائله - وعدم التعصّب لمذهب معيّن، وضرورة أن يعود المسلمون إلى الاتصال المباشر بالكتاب والسنة.

٤ - ضرورة إحياء فريضة (الحسبة) أي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحياء فريضة الجهاد التي خمدت في نفوس المسلمين.

٥ - العمل على إقامة دولة تتبنى الدعوة؛ لأنه بالدولة والدعوة معاً تبنى حضارة الإسلام... وبالتمزّق أو الانفصام بين الساسة والدعاة يقع السقوط والتشرذم.

وقد كللت جهود الشيخ محمد بن عبد الوهاب بالنجاح التام عندما تحالف معه الإمام محمد بن سعود الكبير، ومن ثم تعاهدا على إقامة (دولة الدعوة) التي قامت في الدرعيّة على مقربة من الرياض وامتدت إلى أنحاء الجزيرة وأثّرت في كثير من الإصلاحيّين والمجدّدين في العالم الإسلامي.

وقد مرت (دولة الدعوة) في الجزيرة بأطوار مثّلتها الدولة السعودية الأولى، والدولة السعودية الثانية.. والدولة السعودية الثالثة التي كانت بقيادة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود (رحمه اللّه)،

وما زال أبناؤه الكرام المخلصون يحملون راية الدولة والدعوة؛ مروراً بالملك فيصل، وحتى الملك عبدالله بن عبد العزيز أطال اللّه عمره.

## ٩ - صورة دعويّة معاصرة من تركيا

ولد سعيد النورسي في قرية «نورس» وهي إحدى قرى قضاء «خيزان» التابع لولاية «بنيس» شرق الأناضول سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٣ م) [١].

كان والده ميرزا ورعاً يضرب به المثل في الزهد والورع؛ فلم يطعم أولاده من غير الحلال، حتى إنه إذا عاد بمواشيه من المراعي يشدّ أفواهها لئلا تأكل من مزارع الآخرين. وتقول أمه «نوريّة»: إنها ما أرضعت أطفالها إلا وهي على طهر ووضوء.

وقد تلقى علومه الأولى في كتاب القرية «طاغ» سنة (١٨٨٢ م). وفي سنة (١٨٨٨ م) ذهب إلى «بتليس» والتحق بمدرسة الشيخ «أمين أفندي» [٢].

وفي سنة (١٨٩٢ م) ذهب سعيد النورسي إلى ماردين، حيث بدأ يلقي دروسه في جامع المدينة، ويجيب عن أسئلة قاصديه، وقد أصبح يطلق عليه اسم (الملاّ سعيد).

وفي سنة ١٨٩٤ م، ذهب إلى «وان» بدعوة من واليها «حسن بك» حيث بقي عنده، ثم في منزل «طاهر باشا»، ولقد هيّأ اللّه له ظروف

---

(١) اعتمدنا في هذه النبذة الوجيزة على الكتاب الرائع: بديع الزمان سعيد النورسي، نظرة عامة عن حياته وآثاره، ص ١٩ (بتصرف) لصديقنا الكبير الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، ط ٣، الكلمات للنشر.

(٢) المرجع السابق، ص ٠

الالتقاء ببعض أساتذة العلوم الحديثة (من جغرافية، وكيمياء وغيرهما). وحينما دخل معهم في نقاش شعر بقصوره في هذه العلوم، مما جعله يقبل على تعلّمها بشغف عظيم حتى أتقنها وأصبح متمكناً منها، لدرجة أنه كان قادراً على التأليف ومناقشة المختصين فيها (١).

وفي هذه الفترة وأثنّاء إقامته في «وان» قرأ في الصحف المحلية خبراً مدهشاً هزّ كيانه كله هزاً عنيفاً، فقد نشرت الصحف ما قاله وزير المستعمرات البريطاني (غلادستون) في مجلس العموم البريطاني وهو يخاطب النواب وبيده نسخة من القرآن الكريم: «ما دام هذا القرآن بيد المسلمين فلن نستطيع أن نحكمهم؛ لذلك فلا مناص من أن نزيله من الوجود، أو نقطع صلة المسلمين به».

وقد زلزل هذا التصريح الآثم كلّ كيانه وصمّم بينه وبين نفسه على أن يكرّس كلّ حياته لإظهار إعجاز القرآن وربط المسلمين بكتاب اللّه، حيث قال: «لأبرهننّ للعالم بأنّ القرآن شمس معنويّة لا يخبو سناها ولايمكن إطفاء نورها» (٢).

وفي شتاء سنة ١٩١١ م (١٣٢٧ هـ) زار سعيد النورسي بلاد الشام، حيث كانت أخته هناك، وألقى خطبة باللّغة العربية في الجامع الأموي في دمشق مخاطباً العلماء وجمعاً غفيراً من المصلّين، وقد طبعت خطبته هذه في كراسة تحت عنوان (الخطبة الشاميّة) التي شخّص فيها أمراض الأمة الإسلاميّة وعلاجاتها، ورأى أنّها تنحصر في

(١) المرجع السابق، ص ٢٤.
(٢) المرجع السابق، ص ٢٣.

الأمراض الستة الآتية:

١ - اليأس أو القنوط الذي ما زال يحدّ أسباب الحياة في نفوسنا.

٢ - موت الصدق في حياتنا الاجتماعيّة والسياسيّة.

٣ - حبّ العداوة والبغضاء وإيثار الخلاف.

٤ - تجاهل الرابطة الروحية التي تربط المؤمنين بعضهم ببعض.

٥ - ذيوع الاستبداد.. مثل ذيوع الأمراض المعدية المختلفة، الاستبداد ممتد في كل حياتنا.

٦ - حصر الهمّة في المنفعة الشخصيّة، دون الالتفات إلى النفع العام [١].

وعندما دعي ليقابل حكومة كمال أتاتورك وأعضاء البرلمان في أنقرة لبّى الدعوة وذهب إلى أنقرة سنة ١٩٢٢ م، قبيل عيد الأضحى، حيث استقبل في المحطّة استقبالاً حافلاً، إلا أنّه لم يسعد في أنقرة كثيراً، إذ لاحظ بأسف بالغ أنّ معظم النواب لا يؤدّون الصلاة، كما أن تصرّفات مصطفى كمال أتاتورك وسلوكه المعادي للإسلام أحزنه كثيراً، لذلك فقد قرّر أن يطبع بياناً في ١٩٢٣/١/١٩م يتضمن عشر مواد موجهاً إلى النواب يعظهم ويذكرهم بالإسلام، مستهّلاً بـ (يا أيها المبعوثون: .. إنكم لمبعوثون ليوم عظيم) وكان من نتيجة هذا البيان الذي وزّع بين النواب، وتولّى إلقاءه الجنرال (كاظم كره بكر) (القائد الأول لحركة

(١) المرجع السابق، ص ٣٦.

الاستقلال) أنّ ما يقارب ستين نائباً من النواب قد استقاموا على التديّن وأقاموا الصلاة، حتى أن مسجد بناية المجلس لم يعد كافياً للمصلّين، فانتقلوا إلى غرفة أكبر منه.

ولم يرض مصطفى كمال عن هذا البيان؛ فاستدعى بديع الزمان وحدثت مشّادة عنيفة، وكان مما قاله مصطفى كمال:

«لا ريب أننا بحاجة إلى أستاذ قدير مثلك، لقد دعوناك إلى هنا للاستفادة من آرائك المهمة، ولكن أول عمل قمت به لنا هو الحديث عن الصلاة، لقد كان أول جهودكم هنا هو بث الفرقة بين أهل هذا المجلس»!!.

فأجابه بديع الزمان مشيراً إليه بإصبعه في حدّة:

«باشا.. باشا.. إنّ أعظم حقيقة بعد الإيمان بالله هي الصلاة، وإنّ الذي لا يصلّي خائن، وحكم الخائن مردود» (١).

وعندما ظهرت للعيان المؤامرة على الإسلام - دينا وحضارة وخلافة - وظهرت هيمنة العلمانيّة والصهيونيّة على تركيا - بجلاء - لم يبدّد سعيد النورسي وقته في البكاء ولعن الظلام، بل برمج حياته على أساس مقاومة الإلحاد العلماني الماسوني الذي جاء يقتلع بذور الإيمان مسلّحاً بالمكر والتآمر والانحلال الأخلاقي، وتوجيه الفن والثقافة لخدمة الإلحاد والمادية والحياة الفوضوية.

ولأكثر من خمسة عقود وحتى الخامس والعشرين من رمضان سنة ١٣٧٩ هـ الموافق ٢٣ من مارس سنة ١٩٦٠ حين وافته المنيّة، عاش سعيد

(١) المرجع السابق، ص ٥٢، ٥٣.

النورسي يجاهد بقلمه وجهوده التربويّة والدعويّة، وأمامه هدف واحد انصرف إليه بكّليته بعد تجارب متعددة، وهو أن يبذر بذور الإيمان الصحيح عن طريق التربية القرآنيّة والنبويّة، واقتلاع بذور الإلحاد التي سعى العلمانيون والماسونيّون إلى غرسها في الأرض التركيّة والعالم الإسلامي، وكانت موسوعته (رسائل النور) خلاصة مشروعه العملاق لبعث الأمة الإسلاميّة بعثاً إسلاميّاً وعصريّاً.

وكما رأينا، فإنه في سبيل إنقاذ الإيمان اشتغل سعيد النورسي بالسياسة وتعاون مع الذين يمكن التعاون معهم من السياسيّين ورجال الخلافة العثمانيّة، وقدم للسلطان اقتراحاً بشأن جامعة إسلاميّة عالميّة في آسيا تضاهي الأزهر في أفريقيا.

لكنّ النورسي عندما وجد أن الإصلاح عن طريق سياسة عاجزة وساسة لا يرون قيام النهضة على أساس الإسلام والهويّة الحضاريّة القرآنيّة المستقلة؛ أقلع عن الاشتغال بالسياسة وابتعد عن كل صور الصدام بالساسة؛ ومن ثم تفرّغ لبناء الأمة من موقع الفقه العصريّ للقرآن.. فقهاً ينتهي ببناء الفرد العصريّ المؤمن، ومن ثم بناء المجتمع المسلم والحضارة الإسلاميّة القادرة على دحر الإلحاد - بلغة العقل والعلم والدين معاً - وبناء إنسانيّة مؤمنة معاصرة [١].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٣.

## ١٠ - حرب التحرير الجزائرية صورة حيّة للتكامل الجهاديّ السياسيّ والدعويّ

ولد الإمام عبد الحميد بن باديس (الشيخ الرئيس) سنة (١٨٨٩ م) في مدينة قسنطينة - أكبر مدن الشرق الجزائري - وأبدع مدن الجزائر على الإطلاق من حيث الموقع الطبيعي، وأشهرها من حيث احتضانها القديم للثقافة الإسلامية، وإنجابها لكثير من قادة الفكر الإسلاميّ في الجزائر، وكذلك كثرة الآثار الإسلاميّة بها.

وفي قسنطينة هذه نشأ الشيخ ابن باديس، وترعرع وتلقى علومه، ثم تخرج من الزيتونة عام ١٩١٢ م، ولم يلبث أن قام بالحج إلى بيت اللّه الحرام - شأنه شأن الأمير عبد القادر الجزائري - حيث استغلّ هذه الرحلة الدينيّة فطاف بالمشرق والمغرب، وأتيح له أن يعرف من أمراض المسلمين الشيء الكثير، فعاد إلى الجزائر عازماً على الإصلاح وفق منهج إسلاميّ تكوّنت أبعاده في ذهنه من مجموعة من المؤثّرات المهمّة، صدر بعضها عن الواقع، وصدر بعضها عن الثقافة التي تشبّع بها الشيخ.

وقد عاش الشيخ ابن باديس ظروف محنة الاحتلال الفرنسيّ للجزائر الذي عمد إلى محاولة إزالة الإسلام وإخراجه من الجزائر إلى الأبد.. ولهذا كانت حركات المقاومة الجزائرية في عمومها حركات إسلاميّة..

وإذا ما استثنينا الطابع الإسلامي لحركة الأمير عبد القادر الجزائري، فإننا نجد هذا الطابع الإسلامي موجوداً في حركة (نجم شمال إفريقيا).. التي ظهرت ١٩٢٥م، ولهذا لم تلبث هذه الحركة أن

تطوّرت وأعطت نفسها اسمها الصريح منذ سنة ١٩٣٦م، وأصبحت تدعى «الاتحاد الوطني للمسلمين المغاربة».

وفي هذا السّياق الإسلاميّ الجهاديّ الذي يقود معركة إنقاذ الجزائر من براثن فرنسا العاتية ظهرت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة ١٩٣٠م؛ معطية كل الأهداف الجزائرية المبعثرة صيغتها التقنّية الواضحة التي تمثّلت في:

- مقاومة الإدماج والتجنيس وإبراز الشخصيّة الجزائريّة.
- فصل الدين الإسلاميّ بكل أجهزته عن سلطة الدولة الفرنسيّة الحاكمة.
- إتاحة الفرصة للتعليّم العربيّ والثقافة العربيّة.
- تربية الشباب الجزائريّ تربية إسلاميّة.
- العمل على توحيد كلمة المسلمين والقضاء على أسباب انحطاطهم.
- إنشاء المدارس العربيّة والإسلاميّة.
- إنشاء المساجد والنوادي الثقافيّة.
- إرسال البعثات العلميّة إلى بلاد الإسلام المتقدمة.
- تأسيس الكشّافة الإسلاميّة.
- تأسيس جمعية التجار المسلمين.
- تأسيس جمعيّة الفنون الجميلة والموسيقى العربية.
- إنشاء صحافة عربيّة وإسلاميّة!!

وقد فسّر الشيخ ابن باديس القرآن الكريم كلّه تفسيراً يوقظ به الشعب الجزائريّ، ولم يكن عجباً أن يحتفل الشعب بيوم ختام هذا التفسير وكأنه يحتفل بعيد استقلال روحي وحضاري.. والتقت إرادة الساسة والمجاهدين والدعاة والعلماء بقيادة جمعيّة العلماء التي رفعت أمام الجميع شعارها الذي دوّى في أنحاء الجزائر:

- شعب الجزائر مسلم... وإلى العروبة ينتسب

وبعد جهاد طويل، ومعركة مباشرة قامت بين الشعب الجزائريّ والاستعمار الفرنسيّ خرجت فرنسا من الجزائر سنة ١٩٦٢ م، بعد احتلال دام مائة وثلاثين سنة.

❖❖❖

وأخيراً..

فهذه دروس منتقاة من تاريخنا الإسلامي، ولا شكّ أن ثمة دروساً كثيرة تزخر بها صفحات هذا التاريخ الخصب، وفي مقابل ذلك دروس على الشاطئ الآخر تؤكد لنا أن الهزائم والنكبات كانت مرتبطة بالتمزّق والتنازع بين الأمراء والعلماء وبين بقيّة أجزاء الجبهة الإسلامية.

ولهذا ارتبطت ظاهرة المدّ والجزر في تاريخنا - إيجاباً وسلباً - بمستوى هذه العلاقة، فالأمراء والعلماء، يمثلون عقل الأمة وقلبها، وبدون عقل وقلب لا يمكن أن يتحرك الجسد الإسلامي.

- وفي عصرنا الحديث يجب أن نضع هذه الحقيقة أمام كل الأمراء والعلماء، فلعلهم في هذه المحنة الإسلامية التي نعيشها - يعبرون مأزق

التمزق والتنازع، ويلتقون على ثوابت الأمة المستقاة من دينها وحضارتها ورسائلها الربّانية الإنسانيّة، ويعذر بعضهم بعضاً فيما اختلفوا فيه، وذلك في نطاق ما يتسع له الاجتهاد الفقهيّ، والنظام الإداريّ الإسلاميّ.

# ثانياً

## ماذا يقدم المسلمون للحضارة المعاصرة

أ - الأخلاق الصحيحة.

ب - الحضارة الحقة.

جـ - الإنسانيّة اللائقة الشاملة.

## الإسلام ومنظومته الأخلاقية في مواجهة الماسونيّة واللاّدينيّة:

إنّ كلّ المحاولات التي يبذلها دعاة الحريّة الفوضويّة ودعاة اللادينيّة واللاأخلاقيّة محاولات محكوم عليها بالفشل، وحسب هذه المحاولات أن تبلبل أفكار الأمة، وأن تجعلها تتآكل داخليّاً وأن تفقد بالتالي عقوداً أو قروناً من مسيرتها الحضاريّة، فلا يمكن أن يستقيم هذا العالم الإنساني دون قيم وأخلاق وروابط تحتفظ للإنسان بإنسانيّته «في أحسن تقويم» كما أراد اللّه له، وتحول دون سقوطه «إلى أسفل سافلين» كما يريد أعداء اللّه له من شياطين الإنس والجن، مثقّفين كانوا أم إعلاميّين أم مفكريّن أم سياسيّين!!.

وعبر كلّ الدراسات المحترمة التي تكلّمت في قضايا تفسير التاريخ نجد أن وجود (نظام) قيمي أخلاقيّ وقانونيّ يمثل شرطاً أساسيّاً لبقاء النوع الإنساني، ومن دون هذا (النظام) تنهار الحضارات ويسقط الإنسان إلى مستوى من الانحطاط لا يستطيع الحيوان أن يصل إليه.... وليس الدين في الحقيقة إلا الضامن الحقيقيّ لوجود نظام أخلاقيّ يحكم الحياة والإنسان ظاهريّاً وباطنيّاً، ويقيم علاقته باللّه وبأخيه الإنسان على أسس إنسانيّة كريمة، ومن هنا كان القول المأثور عن رسول الله (ﷺ) «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» [١]..

- يقول هنري برجسون: «لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة».

---

(١) رواه مالك في الموطأ، وورد في الحاكم ومسند أحمد والبيهقي (دون إنما) كما ورد بلفظ صالح الأخلاق.

- ويقول (شاشاوان): «مهما يكن تقدّمنا العجيب في العصر الحاضر علميّاً وصناعيّاً واقتصاديّاً واجتماعيّاً، فإن عقلنا في أوقات السكون والهدوء يعود إلى التأمل في المسائل الأزلية»... أي إنه لا بدّ من مبادئ، وأسس وثوابت أزليّة وإنسانيّة وقيم أخلاقيّة لكي تقوم الحياة الإنسانيّة ولكي تستقر وتتطور.. ومهما تكن أمام أعيننا من ظواهر حضارية تبدو أنّها مزدهرة بلا أخلاق ولا قيم ولا ثوابت، فيجب ألاّ تخدعنا هذه الظواهر، فالخلل يبدأ من الجذور، كما تستقر الجراثيم في الجسد عشرات السنين دون أن يشعر صاحبها بها، لكنّها تعمل في كل ساعة على هدمه وقد سقطت الحضارة الرومانية في عدد من القرون - حسب دراسة جسيبون - بينما كانت تشعر بالزهوّ والخيلاء والكبرياء القوميّ، ولم تترك أثراً حضارياً يحمد لها، بل إنّها قامت بتشويه الدين ومزجه بالوثنية عندما اضطرت إلى قبوله، كما إن هذه الحضارة عمقت مفهومين خطيرين يؤثران سلباً في حياتنا المعاصرة، وهما مفهوم (الاستعلاء العنصريّ)، ومفهوم (سيطرة القوّة على الحق) لمجرد أنّها الأقوى، وكما يقول - المجاهد الكبير (علي عزت بيجوفيتش): إنّ الشعوب تدخل التاريخ عندما تكون غنيّة الأخلاق، حتى وإن كانت فقيرة ماديّاً، وعندما تخرج منه فإن الوضع يكون عادة معكوساً، ويتبع ذلك استنتاج أنّ الحضارة بمعنى المعرفة الماديّة وحسب ممكنة، ولكنّ الأخلاق ليست نتيجة وإنما هي مقدّمة تاريخيّة، وهي تلتقي بالإنسان عندما يملك الوعي الدينيّ الخالص، أما عندما يبتعد الوحي، -

وبالتـالي ينحـدر التطور التـاريخي - فـإن الدين ينسـحب أو ينحـرف وتسقط الأخلاق، ويظهر على المسرح الانهيار الأخلاقي»[١].

وفي يقيني أنّ أولّ بل وأعظم ما يعطيه المسلمون للحضارة الحديثة هو «الدين بمنظومته العقدية والأخلاقية والتشريعية»، ولا سيّما بعد أن انهزمت القوى الداعية إلى الدين في الحضارة الحديثة، وأصبح الدين منقاداً لا قائداً، وعليه أن يقبل ضغوط الواقع، حتى ولو كان هذا الواقع هبوطاً بالإنسان إلى أسفل سافلين ممثلاً في زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة ليس كسلوك شاذ، بل كسلوك مُعلن يدّق باب بعض دور العبادة بقوة، وبضغط رهيب، ويعلن عن نفسه صراحة في ظل حماية قانونية!! ولعل هذا الانهزام الأخير الذي وصل إلى هذا المستوى جاء نتيجة تلك الأفكار التي أرادت زحزحة الدين بنظمه الأخلاقيّة والشرعية، ودعت إلى نسبيَّة القيم وتاريخيّتها، كما دعت إلى نزع القداسة عن قضايا الجنس وتركها تتحرك في المجتمع دون سيطرة قيميّة أو دينيّة، وذلك مثلما يدعو (الدكتور صلاح فضل) في ورقته المقدّمة إلى مؤتمر الثقافة العربية في القاهرة [٢] - إلى تلك الإباحيّة الجنسية الفاضحة والشذوذية قائلاً: (إن أولى علامات التقدم الاجتماعي / وهي أولى علامات الانحطاط الحيوانيّ في رأينا!! - عند من يعرفون ألف باء الحضارة/ - تظهر عندما يتجاوز المجتمع المفهومات والعلاقات الناجمة عن إضفاء طابع الخطورة والأهمية على قضايا الجنس، ويقيم محلها مفهومات

---

(١) هروبي إلى الحرية: دار الفكر العربي ط/١/٢٠٠٢ ميلادية نقلاً عن مصطفى الأزهري المنار الجديد عدد ٢٣ - القاهرة.

(٢) ١ - ٣ يوليو ٢٠٠٣ المجلس الأعلى للثقافة - مصر (وهو مؤتمر تغريبي يسعى إلى علمنة الدين وتنحيته انسجاماً مع الأفكار الماسونية والصهيونية الشائعة!!.

وعلاقات جديدة ترتكز على العقلانيّة وتحقيق المصالح الاجتماعيّة الكبرى في المجتمع والإنتاج والرفاهيّة.

لأنّ بدائية المجتمع البطركي تتجسد في بدايته الجنسية، ولكي يتحرر هذا المجتمع لابد أن تكون المرأة حرّة تعتزّ بكرامتها الإنسانيّة واستقلالها عن الوصاية!!.

وحينئذ لا تشغل مسألة الجنس اهتمام الرقابة الاجتماعية ولا تصبح المتعة بأولوية قصوى في سلم الاهتمامات، ويتم تقبل الحلول التي اهتدت إليها المجتمعات المتطوّرة في سيرتها الحضارية عبر التاريخ، بما يحافظ على تحرر المرأة من بيع الجسد وامتلاك مصيرها المستقلّ) (١).. أي بدل بيع جسدها فمن حقّها أن تمنحه هبة مجانية للناس حصولاً على المتعة وتحقيقاً لامتلاك مصيرها المستقلّ، إنها الشيوعيّة الجنسية التي كنا نظن أن الوعي البشري قد تجاوزها... لكنها عادت بقوة بعد سيادة الفكر الماسونيّ والصهيونيّ على العالم... ذلك الفكر الذي تألّق في مؤتمري (القاهرة وبكين) للسكان والتنمية - اللذين قصد منهما إباحة العلاقات الجنسية الشاذة، وإباحة الدعارة باسم الحريّة الجنسيّة للمراهقين، وذلك بطريقة قانونيّة وتربويّة تحميها الدول والمواثيق الدوليّة، وهذا يعني أن (الدين والأخلاق) في خطر عظيم وأنّ (الماسونية والصهيونية) قد نجحتا داخل الحضارة الأوروبية ومجالات تأثيرها نجاحاً كبيراً، بحيث يبدو أن أي محاولة لرسم صورة للتركيب الحضاري الأوروبي لابدّ أن تقنعنا بجلاء بأن

(١) صلاح فضل - المرجع السابق.

الروح الأخلاقية التي أطلت على عصر النهضة، قد آلت إلى روح لا أخلاقية تكتنف كل مظاهر الحياة، وحتى العقل الذي عبد في مطلع هذه النهضة، طغت عليه مذاهب لا معقولية تهيمن على عوالم الفن والأدب والسلوك الاجتماعي!!

واستغل الماسونيون الشعارات الثورية: الحرية، والإخاء، والمساواة، فأصبحت بذاتها - بعد أن جعلوها مذاهب - وسائل هدم تهدد حياة ومستقبل الإنسان بالخطر، فقد استغل هؤلاء أيضاً التطور الفني والتقني، وأقنعوا الفكر الأوروبي بأن هذا التطور في علوم الطبيعة كاف بذاته لإعطاء تفسير يغني عن تفسير أصل الأشياء بالله، وكاف في الدلالة على إمكانية الاستغناء عن الله. وللأسف الشديد فإن الكنيسة الأوروبية والمذاهب المسيحية أصبحت عاجزة عن صدّ التيارات اللادينية والإباحية في المحيط الأوروبي وفي البلدان المتأثرة به، كما أن رجال المسيحية قد أصبحوا خاضعين للصهيونيّة والماسونيّة وعاجزين في الوقت نفسه عن إقامة جسور التعاون مع الإسلام والمسلمين من أجل الاحتفاظ للدّين والأخلاق بوجودهما وتأثيرهما، مع أن هذا التعاون ضروريّ ومهمّ ليس بين الحريصين على الدين والأخلاق من المسلمين والمسيحيين فحسب، بل بين كلّ المؤمنين بضرورة الثوابت الدينيّة والأخلاقيّة للحياة، وهم الذين يسميهم الرئيس (علي عزت بيجوفيتش) في كتابه الإسلام بين الشرق والغرب (رجال الطريق الثالث) الذين يتكاتفون من أجل الوقوف ضد عبادة الآلهة الجديدة، وتقديس الأقانيم المادية البحتة، أو حسب تعبير رجاء جارودي

الميثولوجيا الانتحارية للتقدم وللنمّو على المنوال الغربي، ذلك المنوال الذي يتسم بالفصل بين العلوم والتقنيات (أي تنظيم الوسائل والقدرة) من جهة، وبين الحكمة (أي التبصر بالغايات الإنسانيّة والدينيّة) من جهة أخرى.

ويشير جارودي إلى ضرورة أن يكون هناك «نظام اقتصادي عالميّ جديد»، ولا يمكن أن يوجد مثل هذا النظام دون نظام ثقافي عالمي جديد؛ ينتقل بالإنسانيّة من الهيمنة الغربية العنصرية اللاأخلاقية إلى التشاور على مستوى الكرة الأرضية لإعادة تحديد مواصفات مشروع إنسانيّ شامل - (مشروع الأمل) فالحوار بين الحضارات أصبح ضرورة ملحة... إنه مسألة بقاء، ومهمتّنا هي أن نعقد الحوار من جديد بين حضارات الشرق، والغرب لكي نضع حدّاً لمونولوج الغرب الانتحاري.

- والانتحار - في معجم جارودي - مرتبط تمام الارتباط بالكفر، وهي كلمة لها معنى محدد عنده، فهو يعرف الكفر باعتباره «النظر إلى الأشياء كما لو كانت مستقلة عن أصلها وغايتها ومعناها» أي فصل الأشياء عن الدين الأخلاق والغايات العليا الدنيوية والأخروية.

وفي مقابل هذا الانهيار الغاياتي والأخلاقي العالمي، يضع جارودي الرؤية الإسلاميّة للواقع، التي تنطلق من فكرة (التوحيد) والتي تعطي لكل حياة ولكل شيء معنى بالنسبة لعلاقته بالكل، وهذا التوحيد ليس توحيداً جامداً، فالتوحيد الحقيقي هو (فعل من اللّه دائم الخلق، فعل من النبي، الذي بكلامه، الموحى به من اللّه، يكون ليس وحدة أو جملة ولكن فعل توحيد، فعل تجميع، فعل لكل إنسان يعي أنه ليس ثمة إله

حقيقي إلا اللّه وأنه في كلّ لحظة يربط كلّ شيء وكل حادث وكل عمل بمبدئه» (١).

❖ ❖ ❖

وسواء رضي أصحاب العقائد والرسالات الأخرى، ومثلهم أصحاب الطريق الثالث الذين يسعون لإنقاذ الإنسانية من الانتحار من أصحاب الضمائر والأخلاق.. أن يضعوا أيديهم في أيدي المسلمين أم لم يضعوا - فإنّ على المسلمين - حتى ولو وقفوا وحدهم ضد قوى الشرّ الصهيونية والماسونية والعولمية الأخلاقية والثقافية - أن يستميتوا في الدفاع عن الدين والحقّ والقيم الإنسانيّة الثابتة والأخلاق التي لا تستقيم الحضارة الإنسانيّة إلا بها..

وعلى الأمة المسلمة - ابتداء أن تطهّر أرضها من الأعشاب والحشرات الضارة، التي تنبت في صفوفها من أنصار الماسونية والصهيونية... (دعاة هدم الدين والاستسلام للباطل ونشر الإباحية الأخلاقية... إعلاميين أو فلاسفة أو مثّقفين)، فهؤلاء هم المتهودون من ذوي القلوب الكافرة والعقول المستأجرة الذين إذا لقوا الذّين آمنوا قالوا آمنّا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون!!.

وإنّه لمن الخيانة العظمى للّه إهمال الأمة الإسلامية لوظيفة البلاغ أمراً بمعروف ونهياً عن منكر وتثبيتاً لموازين الحق المطلق والقيم المطلقة التي تنتظم كلّ الإنسانية.

(١) نقلاً عن عبد الوهاب المسيري اليهود في عقل هؤلاء ص ١١٩، ١٢٠ سلسلة اقرأ ٦٢٠ - دار المعارف، مصر.

ومن الخيانة العظمى أيضاً خضوعها لمحاولات التدخلّ في ثوابتها وتحريف دينها ومناهجها، وتعطيل حركة الدعوة والإغاثة والتكافل الاجتماعي بين أبنائها، تحت ضغط إرهابها بشعارات العنف والتطرف، بينما تعمل كلّ الكتب التنصيريّة، وبينما تحكم في الهند حكومة هندوسيّة، وتقام في أوروبا وأمريكا أحزاب مسيحيّة ويمينيّة متطرّفة، وفي إسرائيل أحزاب غاية في التطرّف والعنصريّة..

أما المسلمون فيحرمون وحدهم من تقديم دينهم للعالم، ومن الإعلان العلميّ الودود عن حقائق الإسلام العالمي الكفيل - قبل غيره - لو وجد رجالاً وظروفاً للتمكين - بإنقاذ سفينة الإنسانية من الغرق تحت وطأة اللادينيّة والانحلاليّة الحيوانيّة.. بوسائله الرحيمة الكريمة التي تجسدّها الآية القرآنيّة الكريمة: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (١).

ولقد أنقذ المسلمون العالم القديم في القرن السابع عشر الميلادي، وأنقذوا إنسانيّة الإنسان التي كانت قد تهاوت أمام استبداد القياصرة والأباطرة والوثنيات والصراعات اللاهوتية وعبادة الشهوات والغرائز، وبالتالي غيروا المفاهيم والعقول والمعارف والعقائد على المستوى الإنسانيّ كلّه بطرق متفاوتة بسطها الشيخ أبو الحسن الندويّ في كتابه العظيم (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)...

- وهم الآن - وحدهم - المؤهّلون للدور نفسه، بعد أن أصبحت إنسانيّة الإنسان مهدّدة بالدمار والحيوانيّة البهيميّة واللادينيّة، كما يعلن (رينية دوبو) في صدر كتابه (إنسانيّة الإنسان - نقد علمي

(١) الأنبياء: ١٠٧.

للحضارة الماديّة) من خلال أقواله: «نحن ندعي أنّنا نعيش في عصر العلم، إلا أن الحقيقة هي أن الميدان العلمي، كما يدار الآن، ليس فيه توازن يسمح للعلم بأن يكون ذا فائدة تذكر في إدارة أمور الإنسان...»

«... إن الحياة الشاذة التي يعيشها عامّة الناس الآن تخنق وتعطّل التفاعلات الحيوية الضرورية لسلامة الإنسان العقليّة ونموّ الإمكانات الإنسانيّة».

«.. إلا أنّ الاحتجاج على الأساليب التقليدية السائدة في السلوك، أو الاعتزال والانسحاب من النظام الاقتصادي الحالي لا يكفيان لتغيير الاتجاه الانتحاري الذي نسير فيه...!!» (١).

إن واقع المسلمين المريض الممزق المتخلّف في هذه الأيام لا يعطي المبرّر لأيّ مسلم - فرداً أو مؤسسة أو دولة - أن يتقاعس عن حمل هذه الرسالة لإنقاذ البشرية، وإنقاذ نفسه، وأداء الرسالة التي كلف اللّه بها المسلمين ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾(٢) - وأيضاً ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(٣).

فالإسلام قام وانتشر وأنقذ العالم في ظروف أسوأ من ظروفنا، لكنّه وجد رجالاً تعاقدوا مع اللّه، وأخلصوا في تنفيذ العقد.. ﴿ إِنَّ اللَّهَ

---

(١) رينيه دوبو: إنسانية الإنسان - مؤسسة الرسالة بيروت ط١ ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ص ٣٥.

(٢) آل عمران ١١٠.

(٣) البقرة ١٤٣.

اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ...﴾(1) ولم يكونوا أشباه مسلمين، ولم يضلوا في الوسائل المحققة لأهدافهم، بل صبروا وصابروا واحتسبوا وامتلكوا أفضل الوسائل الحضارية للدعوة والتغيير.. ولم يعطوا أعداءهم فرصة تشويه الإسلام... فنصروا اللَّه حق النصر... فنصرهم اللَّه ومكّنهم في الأرض...

وتلك هي رسالتنا الثابتة... مهما كانت الظروف «إنها الدين والأخلاق»... وهي رسالة كلّ فرد، وكلّ حزب، وكلّ أسرة، وكلّ مؤسسة في المحيط الإسلامي.

## الإسلام وحضارته في مواجهة الحضارة الماديّة والفوضويّة :

جنح الشهيد سيد قطب - رحمه اللَّه - إلى القول بأنه لا توجد حضارة سوى الحضارة الإسلامية، وهو يقصد بحضارة الإسلام حضارة كلّ الأنبياء... فالدين والنبوّة والوحي المتكامل مع العقل الموضوعيّ... هي جوهر ومسلمات كل حضارة... وبدونها... فلا حضارة..!!

ولو أن الشهيد سيد قطب قيّد كلامه ببعض الملاحظات الإضافّية لكان كلامه مقبولاً، فالحقّ أنّ الحضارة الكاملة أو الصحيحة هي تلك الحضارة التي تقوم على العنون - والوحي - الإلهيّين، وترتبط بالسماء، ولا تنسى روح الإنسان وأشواقه العليا التي تمثل جزءاً أساسياً من تكوينه الإنساني... كما تقوم - أيضاً - على العقل الإنسانيّ، وعياً وتخطيطاً، وإبداعاً وعلماً، وفناً، وتفصيلاً للوحي وتطبيقاً له في هذه الأرض!!

---

(١٠) التوبة ١١١.

لكن هذا لا يلغي وجود حضارات (ناقصة) أو (مؤقّتة)، يمكن أن تستمر لعدة قرون، ذات صلة مشوهة أو هزيلة بالوحي!!.

وهو فقه حضاري مال إليه العلاّمة الجزائري مالك بن نبي... إنصافاً للآخرين الذين استيقظوا برئة واحدة، ومشوا في الدروب بعين واحدة، ووصلوا - في بعض الأحايين - إلى ما لم يصل إليه الذين شلّوا فاعليّة الوحي، وأصبحت علاقتهم به شكليّة، فما انتفعوا بوحي صحيح يملكونه، ولا استهدوا بعقل صحيح يعملونه... وقد كانت للإمام الشيخ محمد الغزالي عبارة ذكية يصف فيها هذه القسمة الحضارية، فيقول: «إن المسلمين ناموا في النور (أي نور الوحي) بينما استيقظ غيرهم في الظلام».... أي بالعقل المحدود وحده!!

وابتداء نحمل المسلمين جزءاً كبيراً من المسؤولية في استيقاظ أوروبا بالعقل وحده، بعد أن قتلت الدين الذي كان رجاله يقتلون العقل في محيطهم، بينما وجدت أوروبا - وهي تستيقظ بعد هزيمتها في الحروب الصليبية - مسلمين لا يعرفون قيمة دينهم ولا تراثهم الذي هضمته تحقيقاً لنهضتها، بينما أصحابه يعيشون مخدّرين بأمجاد الماضي، بعيدين عن إدراك لما ورثوه وعاشوه في أسبانيا وصقلية ورودس والرّها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس، وظهرت الخلافة العثمانية فركزت جهودها المشكورة على القوة العسكرية حماية للمسلمين المهددين، بينما غفلت - عن عدم وعي - عن الجوانب العلمية والحضارية الأخرى، ولا سيما التنظيميّة والتكنولوجيّة!!

وهكذا كان الوعي الحضاري الإسلامي القائم على جناحي الوحي والعقل غائباً، فكان لذلك تأثيره - مع التأثير اللاهوتي الكنسي في محاربة العقل والعلم - في الاتجاه الأوروبي نحو عبادة العقل ونبذ الوحي، وفي التركيز على الجانب الماديّ والمصلحيّ والتكنولوجيّ والدنيويّ من التطور، بعيداً عن مزج هذه الجوانب الحضارية بالعناية الربانية، والوحي السماوي، ونصيب الروح والأخلاق والقيم والضمير في المنظومة الحضارية، حتى لا تسحق إنسانية الإنسان، وحتى لا يفقد الإنسان قيادة المادة للآلة، وحتى لا تنقطع الصلة الصحيحة بين اللّه والإنسان والدنيا والآخرة والمصالح الخاصّة والعامّة...

وخلال قرون التطور الأوروبي في عصر النهضة (القرن السادس عشر، والسابع عشر، والثامن عشر، والتاسع عشر الميلادية) بقي الوضع ينحدر إلى أن انتهى بوصول الحضارة المادية إلى وحش مفترس يسحق شعوباً لمصالحه، ويعيش على الخداع والكذب، ويستعلي عنصرياً، ولا مكان للآخرة في تخطيطه أو رؤيته أو معاملته للآخرين... ولا في تنظيمه الاجتماعي والاقتصادي والتربوي... حتى بلغ الأمر بكثير من فلاسفة الحضارة الذين عاشوا في ظلّ هذه الحضارة سنوات طويلة، وخبروها عن قرب، إلى أن يئسوا من إصلاحها... فها هو ابنها الكبير «رجاء جارودي» يسميها (حضارة حفاري القبور للإنسانية) وعلى غلاف كتابه (حفارو القبور) [1] يكتب شارحاً: (الحضارة التي تحفر للإنسانية قبرها).... ويأتي الجزء الأول من كتابه تحت عنوان:

---

(١) نشر دار الشروق - القاهرة ط١/١٤١٩ هـ.

«العالم المحطّم والهيمنة الجديدة»... ونحن لا نستطيع هنا استقصاء التفصيلات التي ذكرها؛ لأنها تحاول (محاولة صعبة) في أربعين صفحة حصر جرائم هدم الإنسانية خلال خمسة قرون من الاستعمار أدّت إلى نهب ثروات ثلاث قارات وإلى تدمير اقتصادياتها وتكبيلها بالديون [١].

أما الجزء الثاني فيتكلم فيه عن (أغراض الانحطاط).. وهو في نحو ثلاثين صفحة يحاول توضيح معنى الانحطاط الذي تقود من خلاله الولايات المتحدة العالم إلى الهاوية... إنه [٢] أي الانحطاط - قطع أواصر النسيج الاجتماعي لتحويل المجتمع إلى ذرات، لتخريب العلاقات بين الجماعات القومية، الاجتماعيّة أو الدينيّة، وذلك عندما لا تَعُد وحدة العالم هدفاً نهائياً وقاعدة كبرى.

ويعني الانحطاط على المستوى الفرديّ، الاهتمام بالنفس ورفض الآخر ورفض أي مسؤولية تجاهه، وعلى مستوى الجماعات، هو النزوع إلى السيطرة.

وعبادة السوق والملكيّة المطلقة للمال تقود مجتمعاتنا - كل مجتمعاتنا - إلى الانحطاط وإلى الموت. وتمثّل الولايات المتحدة كل أعراض الانحطاط، وبصورة أكثر عمقاً من الانحطاط الروماني وذلك لقيامها بالآتي:

١ - تفكيك النسيج الاجتماعيّ من خلال تراجع المسؤولية الجماعيّة لصالح الأنانيّة واللامبالاة.

---

(١) جارودي: حفارو القبور ص ١٧.
(٢) جارودي: حفارو القبور ٦٨، ٦٩.

٢ - تفكيك المجتمع بسبب تزايد عدم المساواة (التمييز العنصريّ) الاقتصاديّ والثقافيّ.

٣ - تفكيك مستقبل المجتمع، بسبب محاولة الاستفادة القصوى من الحاضر على حساب المستقبل، باستخدام الوسائل المتاحة دون الوعي بالأهداف النهائية الكبرى..!!

.. ولكن (جارودي) لا يتركنا عند تشخيص المرض أو تحليل أبعاد الأزمة، بل يقدّم لنا من وجهة نظره الوسائل الكفيلة بالمواجهة، ونحن نرى ضرورة أن نتعرّف عليها لنفيد منها، ولنضيف إليها، إنه يرى ضرورة القيام بما يلي:

١ - إيقاظ ردّ فعل شعبي ناقد حول أهدف الحياة وحول الأهداف النهائيّة لتاريخنا المشترك (وفي رأينا أن المسلمين هم الأولى بالتصدر في هذا الجانب)...

٢ - مفتاح حلّ مشكلاتنا الكبرى، هو تغيير جذري في علاقات الحضارة الأوروبيّة مع العالم الثالث بهدف قلب أساليب الضغط المدّمر لصندوق النقد الدولي، وأيضاً بالتوقف عن التدمير، عن طريق الهيمنة الاستعمارية للتنمية الداخلية.

وحلّ مشكلات الثقافة إذا ما أزيلت المزاعم الغربيّة بالتفوق وعالميّة نماذجها للنمو والثقافة، وذلك من أجل الانفتاح على الثقافات الأخرى، برغبة في التأثير المتبادل.

٣ - ونكرر بلا ملل: العقبة الرئيسة هي وحدانية السوق بنظريتيها الأساسيّتين:

- أسطورة الحداثة، وأسطورة الديمقراطية، من أجل محاربة ذلك لابد من تفاعل جهود كل من تمثل الحياة عندهم معنى: إيمان بالله، أو إيمان بالإنسان (أي لا حداثة بلا إيمان، ولا ديمقراطية بلا أخلاق).

٤ - تغيير نمط حياتنا لن يتّم فقط من خلال التبشير الأخلاقي وعكس الوضع الحاليّ، بل أيضاً عن طريق مشاركة لكل هؤلاء الذين لا يعيشون من التفكير الطفيليّ في الفساد، لكن يعيشون من الإبداع والإنتاج الحقيقيّ لخدمة المجتمع [١].

❖ ❖ ❖

وهكذا يشخص لنا رجاء جارودي الداء الحضاريّ الذي تعاني منه البشرية كلّها، نتيجة وجود قوة يسميها هو (الولايات المتحدة الأمريكية) تحفر للبشرية قبرها، وتقود في كلّ يوم شعوباً إلى الموت بدءاً من الهنود الحمر، إلى المخطوفين من أدغال إفريقيا، إلى إبادة الأفغان، والفلسطينيين، ثم العراقيين.. بصمت - وتواطؤ - من كثير من قوى العالم.

لكننا نرى أن الولايات المتحدة، بينما تقوم بحفر القبر العالمي وتفرض عصر الانحطاط، كما يرى جارودي هي - كذلك - من أوائل من سيصيبهم الزوال... فثمة (قوة صهيونيّة ماسونيّة قباليّة) تضرب بهم، وتضربهم في الوقت نفسه.. وهي التي تفعل ذلك بدرجات متفاوتة في أوروبا... بحيث يمكننا أن نقول: إنّ الحضارة الإنسانيّة كلها في

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣، ١٢٤.

خطر.... والعميان - حسب تعبير بروتوكولات حكماء صهيون - لا يعرفون أنهم وهم يدمرون الآخرين إنما يدمرون الأرض كلها... بيئة، وأخلاقاً، وديناً، وروحاً، واقتصاداً، واجتماعاً، وثقافة، وأحدية النظرة، عنصريّة المنطلق، نافية لما سواها.

وليس غير المسلمين بمنهجهم الحضاريّ الإنسانيّ الربانيّ، وباحترامهم للآخر، وإيمانهم بالتعدديّة، وبوضعهم العلم في مكانه الصحيح... بناءً لا هدماً، وسيلة لا غاية، وإدراكاً لما يوصل لخشية اللّه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١)، وليس تقديساً للعلم، واستغناءً به عن اللّه والروح والضمير والدّين، فكأن هذا العلم (صنم ثابت قابل للعبادة) وعلى سدنته أن يروجوا لقداسته حتى وهو في أشد حالات تخريبه للإنسان، فالقنابل الذرية القاتلة توصف بالذكاء، والإبداع والقدرات الخارقة، والسباق يجري، - بجنون عقلاني - للمزيد من امتلاك أسباب الهلاك.

لكننا نحن - المسلمين - مطالبون بوضع حدّ لهذا الجنون العلمي، والنظر إلى العلم على أنّه نسبيّ، لا تقل عنه وسائل معرفية أخرى، من حيث إن الدين، والإيمان، والحسّ الكليّ... والفطرة هي أيضاً - مصادر متوازنة مع العلم لتحقيق المعرفة الصحيحة (٢)، وهي مصادر تميّزنا... وتحقّق لنا أهدافاً لا تتحقق في المستوى الإنسانيّ الآن، حيث الغلبة لعبادة العلم والمادّة والقوّة...!!

---

(١) فاطر: (٢٨).

(٢) يحيى الرخاوي: نعيد النظر في كل شيء!! كارثة أم كاشفة - بتصرف - بحث لمؤتمر وزارة الثقافة المصرية (التغريبي) - مرجع سابق!!

وإذا كانت الحضارة الحديثة قد رضيت العلم والمادة والقوة...!!

فنحن - في مشروعنا الحضاري - نضع العلم في إطاره وحجمه حتى لا يتحول إلى آلة دمار وخراب... ولكننا نعده ركيزة أساسيّة في مشروعنا الإسلامي الحضاري الذي يقوم على مفاهيم مضامين محوريّة تتصف بالشمول والتكامل كيما تكون صالحة بمجموعها لتمثيل المشروع الحضاري الذي يمثّل بدوره الإسلام عقيدة وشريعة وفلسفة إزاء الكون والحياة والإنسان.

وهذه المفاهيم المحوريّة ليست مجرّد أفكار نظرية بل يجب إذابتها لا في بوتقة العمل الإصلاحي الحضاري فحسب، بل يتعيّن انسيابها من الإصلاحيين أنفسهم، من حركاتهم وسكناتهم في رخائهم وشدتهم، وأن تترجم في أهدافهم وبرامجهم، بيوتهم وأعمالهم، وفي أفعالهم قبل أقوالهم، لتستحيل تلك القضايا والأفكار إلى أوكسجين منبعث في فضاء الإصلاح يتنفسه كل أحد... يتنفسه الرائح والغادي... القريب والبعيد.. الصديق والمعادي... أي أن يكون المشروع الحضاري روحاً ينفخ الإصلاحيون فيه الحياة بتمثلهم مفرداته، وسعيهم من أجل نشره وتنفيذه بكل إخلاص وإبداع وإتقان.. (١).

**ومن أهم الأفكار المحوريّة التي تسهم في بلورة ذلك المشروع ما يأتي:**

الإسلام: دين وتشريع وحياة.

---

(١) عبد الله البريدي: النموذج والمسار، (المنار الجديد، العدد ١٥، القاهرة، بحث في المسألة الحضارية.

أساس الحضارة: التوحيد الخالص العملي.

فهم ومعايشة وتطبيق القرآن حتى يكون هادياً للتي هي أقوم.

توحّد في المنطلقات: يوجب الانبثاق من الكتب والسنّة.

وقود التغيير: الفعاليّة الروحيّة

مفتاح التغيير الحضاري: الفكر بتحسين طرائق التفكير.

ومفتاح التغيير الحضاري العملي: ﴿إن اللّه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾

وإرادة التغيير: الرجل بأمة.

العلم بمجالاته وتراكميّته وترابطه.

تكريم الإنسان: معيار تفوق الحضارة.

تنمية الإنسان أوّلاً: مؤشر لفقه الأولويّات الحضاريّة.

العدالة: ركيزة البناء الحضاري.

الموضوعية: البحث عن الحقيقة.

الحريّة: في إطار منضبط.

النقد عملية بنائيّة.

الإبداع: مقوّمات وبيئة.

نهج إداريّ فاعل: إنجاز التميّز وتميّز الإنجاز.

الوقت: فضاء الإنجاز ، العطاء.

الانفتاح والاستيعاب والإفادة من الآخر: في دائرة الخصوصيّة.

الرجل والمرأة: حلقتان متكاملتان وعاملان منتجان.

الجماعة قبل الفرد: نحن أولاً: (أي قبل أنا) (١).

ويضاف إلى هذه الأفكار المحورية: المقومات التي تنطلق منها الرسالة الحضارية الإسلاميّة الإنسانّية، وهي مقوّمات يحصرها الشيخ يوسف القرضاوي في عشرين مقوماً لكنها - بيقين مقومات أساسية يمكن أن تضاف إليها مقومات أخرى... من هذه المقومات: رسالة العقيدة الموافقة للفطرة، ورسالة العبادة الدافعة للعمارة، ورسالة العقل المهتدي بالوحي، ورسالة العلم المرتبط بالإيمان، ورسالة الإيمان المقترن بالعمل، ورسالة العمل الملتزم بالدعوة، ورسالة الدنيا المعدّة للآخرة، ورسالة الجسم الممدود بالروح، ورسالة الموازنة مع الواجبات، ورسالة الحرية الخادمة للفضيلة، ورسالة الأخلاق المرتقية بالإنسان.. ورسالة الفرد المنتظم في أسرة ومجتمع، ورسالة المجتمع الذي لا يطغى على الأفراد، ورسالة الأمة المنفتحة على العالم، ورسالة الدولة المقيمة للدين، ورسالة التشريع المحقق للمصالح، ورسالة العدل المؤيد بالإحسان، ورسالة الفن الملتزم بالقيم(٢).

ويضاف إلى هذه المقومات تلك الخصائص التي يتميز بها نسيج التكاليف والأحكام والقيم الإسلامية كلها!!.

---

(١) عبد الله البريدي: المرجع السابق.

(٢) يوسف القرضاوي: هل عند أمتنا رسالة حضارية للبشرية؟ من بحث «حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا الإسلامية، موقع إسلام أون لاين بتاريخ ٢٩/٤/٢٠٠٢.

ومن هذه الخصائص (الوسطيّة والتوازن) دون إفراط أو تفريط، بين الروح والمادة، والفرد والمجتمع بين الربانيّة والإنسانيّة، بين الوحي والعقل، بين الروحيّة والماديّة، بين الأخرويّة والدنيويّة، بين المثاليّة والواقعيّة بين الماضويّة والمستقبليّة، بين المسؤوليّة والحريّة، بين الاتباع والابتداع، بين الواجبات والحقوق، بين الثبات والتغير.... بل هذا هو العجيب؛ تحقيق التكامل بين ذلك كله.. بين كل ما يبدو من ثنائيّات... وعلى رأس ذلك التكامل بين العلم والإيمان والوحي والعقل، والروح والمادة، والعدل والرحمة!!.

وفي ختام هذا النداء الذي نوجهه للمسلمين كي يدركوا قيمة ما عندهم من دين وحضارة وينبعثوا - بالتالي - لتقديم مشروعهم الحضاري، والأخذ بيد الإنسانيّة المهددة في وجودها - نذكر المسلمين بأن إمامهم محمداً (ﷺ) وتلامذته وأصحابه - - وهم الأميّون - قد استطاعوا صناعة الإنسان الأميّ القادر على تغيير الحضارة المادية العنصرية إلى حضارة ربانيّة إنسانيّة.

فهل يعجز المسلمون وعندهم الآن ملايين الباحثين والأساتذة ومئات الألوف من المدارس والجامعات... وعشرات الآلاف من العقول المهاجرة المبدعة الهاربة من الأوضاع الداخليّة الفاسدة.

هل يعجزون عن إنقاذ الإنسانيّة - ولديهم إمكانات هائلة - مثلما أنقذ أسلافهم الإنسانيّة من قبل، يوم أن كان الظلم والاستعباد وعبادة الغرائز والحروب هي القوانين المسيطرة على عالم القرون الوسطى؟!!

## إنسانيّة الإسلام في مواجهة الحضارة الحيوانيّة:

توشك حضارة (الشذوذ) أن تصل بالإنسان إلى (أسفل سافلين) بعد أن عقدت لتقنين الحيوانيّة مؤتمرات التنمية والسكان، وعقدت لتقنين اللادينية والفوضوية مؤتمرات العولمة والعلمنة، بقيادة الماسونية والصهيونية والقبّالية المسيطرة على مواقع التأثير السياسي والإعلامي والاقتصادي في العالم...

ونحن ملزمون بالتحذير من هذه الحضارة التي نسيت الله والدين، وأصبحت مسيحاً دجالاً ينظر بعين واحدة ويكيل بكيلين، ويلعب بالعقول... ولهذا فنحن ملزمون بالإصغاء إلى ( محمد إقبال) وهو يقول لنا: إياكم وهذه الحضارة اللاّدينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق، إن هذه الفتانة تجلب فتناً وتعيد اللات والعزى إلى الحرم، إن القلب يعمى بتأثير سحرها، وإن الروح تموت عطشاً في سرابها، إنها تقضي على لوعة القلب بل تنتزع القلب من القلب، إنها لص قد تمرن على اللصوصية فيغير نهاراً وجهاراً، إنها تدع الإنسان لا روح فيه ولا قيمة له».

ويتابع إقبال الذي عاش بين أحضان الحضارة الغربية تحذير المسلمين قائلاً:

- إن شعار هذه الحضارة: الغارة على الإنسانيّة، والفتك بأفراد النوع البشري، وإن شغلها الدائم التجارة، إن العالم لا يسعد بالسلام والهدوء، وبالحب البريء النزيه، والإخلاص للّه إلا حين تنهار هذه الحضارة الجديدة [١].

---

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي: روائع إقبال، ص ٧٠، ط الرابعة، ١٤١٨ هـ ١٩٩٨م، دار القلم، الكويت.

وأيضاً:

إن شعار الحضارة الحديثة الفتك ببني آدم الذي تقوم عليه تجارتها، وتنفق سلعتها، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الأذكياء، الذي انتزع نور الحقّ من صدور بني آدم.

إن العقل والحضارة والدين حلم من الأحلام ما لم ينقلب هذا النظام رأساً على عقب».

- إنها حضارة شابة - بحداثة سنّها والحيويّة الكامنة فيها، ولكنّها محتضرة تعاني سكرات الموت، وإن لم تمت حتف أنفسها فستنتحر وتقتل نفسها بخنجرها، ولا غرابة في ذلك فإن كلّ وكر يقوم على غصن ضعيف ليس له استقرار» ولا يستغرب أن يرث تراثها الديني ويدير كنائسها اليهود» (١).

وما تنبأ به (محمد إقبال) نعيشه اليوم، ولا سيما بعد مؤتمرات السكان والتنمية ووضوح الهيمنة الصهيونية على العرشين الأمريكي والأوروبي، وبعد أن ظهر خضوع بعض الكنائس وقساوستها لضغوط قيادات الشذوذ الجنسي، وعقد بعض الزيجات في بعض الكنائس بين الشواذ، وتمكين بعض الشواذ من القيام بخدمات لا هوتية، وهذا يجعلنا نَيْئَس من قطاع كبير من المسيحيين، ولا سيما طائفة البروتستانت، ونوقن في الوقت نفسه، أنّ الأصابع الصهيونيّة والماسونيّة وراء هذا الهبوط الذي دعت إليه بوضوح: بروتوكولات حكماء صهيون.

---

(١) المرجع السابق نفسه ص: ٧١.

ونحن هنا نؤيد النزعة الإنسانيّة والشموليّة التي يدعو إليها (إقبال) - أمة المسلمين - في مواجهة هذه الأخطار، فالأمّة الإسلامية ذات مسؤولية نحو الإنسانية كلّها، ونحن لهذا - نختلف مع العلاّمة (مالك بن نبيّ) الذي أخذ على إقبال أنه وهو «يخط للعالم الإسلامي طريق نهضته الروحيّة - طالب بصبغة في التفكير تمكّنه من النظر إلى الأشياء والتنظيمات «لا من حيث نفعها أو ضررها الاجتماعي الذي تعود به على بلد أو آخر بل من حيث الأهداف العظمى التي يسعى إليها مجموع الإنسانيّة» فهذا النوع من الفكر الميتافيزيقيّ الذي قال به إقبال قد يصطدم بالأذهان ذات النزعة العقلية، تلك التي ترى أن كل ما لا يدخل في نطاق المادة لا يدخل في نطاق العقل» - كما يرى مالك بن نبي [1] أن دخول العثمانيين إلى أوروبا كان سيحمل إلى أوروبا إسلاماً لا يعيش أصحابه عصر تألّق به، ولا فقه صحيح له، بينما كانت حضارة المسلمين في حاجة إلى شفق يغلفها لحظة أفولها.

- لقد كانت إحداهما - أي أوروبا - بداية نظام جديد، وكانت الأخرى - أي الخلافة العثمانيّة - نهاية نظام دارس، وما كان شيء في الأرض يستطيع أن يدفع عن العالم الليل، الذي أخذ يبسط سلطته آنئذ على البلاد الإسلاميّة في هدوء، فلو أن تيمورلنك كان قد اتبع دوافعه الشخصيّة لما استطاع شيء أن يحول دون نهاية الحضارة الإنسانية.

وأخيراً يتساءل - ويجيب - مالك بن نبي قائلاً: لماذا حال تيمورلنك دون قيام بايزيد وطغاطاميتش بنشر الإسلام في قلب أوروبا ...؟

---

(١) وجهة العالم الإسلامي: ص ٣٦٠، ترجمة عبد الصبور شاهين دار الفكر، مشق ١٤٠٢ هـ

والجواب: لكي تتابع أوروبا المسيحية جهدها الحضاري الذي لم يكن العالم الإسلامي بقادر عليه منذ القرن الرابع، حيث كان في نهاية رمقه!!.

ومهما يكن من شيء، فإن مضمون هذه الأحداث التاريخية، ليس بالبساطة التي قد تظهر لأعين الذين لا ينظرون إلى الأشياء إلا من وجهة النظر الفرديّة، أو القوميّة، فهناك حسب تعبير إقبال «خطة للمجموع» هي التي تكشف عن اتجاه التاريخ [١].

ومن جانبنا نرى في مجال التعليق على الرؤية العميقة لفيلسوفنا مالك بن نبي أنّه لم يكن ضربة لازب، ولا قولاً واحداً، أن يكون الإسلام الذي يذهب به الخليفة (بايزيد) وإخوانه من الأتراك - إلى أوروبا، مثقلاً بكل الشحنات الخاصة - ذات الطابع العسكري الصارم - الذي يحمله جنود آل عثمان الذين تغلب عسكريّتهم وغيرتهم على فقههم الحضاريّ.. ولقد كان ممكناً أن يجد الإسلام في أوروبا الناهضة التنويريّة الصاعدة أرضه الخصبة التي يبحث عنها - في دورته تلك - لكي ينتج من خلالها منهجيّة إسلاميّة، حضاريّة، إيجابيّة، عقليّة، فاعلة.. بعيداً عن الجزئية والسكونيّة المشرقيّة..

وقد كان من شأن هذا - الواقع - أن ينقذ الإنسانية من المسيرة الحضاريّة الأوروبيّة التي تقدمت عقلاً على حساب دين الكنيسة الذي عجز عن استيعاب شروط النهضة... وكان في جهوده ووقوفه ضد العلم والعقل أسوأ - ألف مرة - من جمود العثمانيين.

---

(١) المرجع السابق: ص ١٦٤.

- وأيّاً كان الأمر... فإن الإنسانية اليوم - أوروبية وغير أوروبية - أحوج ما تكون إلى الإسلام الصحيح.. بعيداً عن تشرذم المسلمين وتخلفهم...

- ولعل الظروف الإنسانيّة المعاصرة.. والشباب المسلم المثقّف الحكيم الفقيه بدينه وبالواقع يحقّق هذا التلاحم بين الإيجابيات الأوروأمريكية التي لا يمكن إنكار قيمتها في الجوانب الماديّة والمعاشيّة... وبين إنسانيّة الإسلام التي تملك وحدها منهجاً إنسانيّاً عالميّاً يقوم على الرحمة والمساواة والأخوة بين جميع البشر في المجالين معاً:

مجال تحقيق سلم عام وعلاج تام لأمراض الإنسانية في الأوقات السلميّة، ومجال فرض الإنسانيّة في الأزمات والحروب....

فأما في المجال السلمي العام والظروف العادية، فإن منهجنا يقوم على اتباع منهج رسول الله (ﷺ) - وهو - للأسف - المنهاج الذي يفتقده عامة المصلحين الذين يأتون البيوت من ظهورها، أو يتسلّلون إليها من نوافذها، ويكافحون بعض الأدواء الاجتماعيّة والعيوب الخلقيّة فحسب، فمنهم من يوفق لإزالة بعضها مؤقتاً في بعض البلاد، ومنهم من يموت ولم ينجح في مهمته.

لكن منهاج النبّوة يأتي بيت الدعوة والإصلاح من بابه، ويضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه، ذلك القفل المعقّد الذي أعيا فتحه جميع المصلحين في عهد الفترة، وكلّ من حاول فتحه من بعده تغيّر مفتاحه، وهو مفتاح الدعوة إلى الإيمان بوجود الله وحده، ورفض الأوثان والعبادات، والكفر بالطاغوت بكل معاني الكلمة «يا أيّها الناس قولوا لا

إله إلا اللَّه تفلحوا!» والدعوة إلى الإيمان برسالات اللَّه، والإيمان بالآخرة، وبكل الأنبياء والرسل!!

وقد رأينا أن أصحابه عندما آمنوا وتفتحت قلوبهم على الحقائق الكبرى... عولج كل شيء.... لأن الإنسان قد عولجت فطرته... فأصبح مفتاح الفطرة مؤهلاً لعلاج كل الأمراض وإدراك كلّ الحقائق...

وهكذا يجب أن نفعل اليوم... والنتائج نفسها تنتظرنا - لو حاولنا أن نصبح (أمّة دعوة) أمة الحضارة الحقّة... خير أمة أخرجت للناس ومن ثم نحّول أفراداً ومؤسسات ودولاً إلى (دعاة فقه حضاري خالص)، لنا مشروعنا لإنقاذ الإنسانيّة.. لا نصادم الباطل بالباطل، ولا العنف بالعنف، ولا دعوة الصدام بالصدام، بل بالحوار، والعدل، والإحسان.

إن من الواجب علينا في عصرنا هذا - أن نمضي على منهاج الرسول (ﷺ) في إصلاح الخلل العالمي، فلا ننسخ باطلاً بباطل، ولا نبدل عدواناً بعدوان، ولا نُحَرِّم شيئاً في مكان ونحلّه في مكان آخر، أو نبدل أثرة الأمة بأثرة أمة أخرى.

وإنما نجاهد في سبيل إخراج عباد اللَّه جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة اللَّه وحده، ونخرج الناس جميعاً من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام (١).

وخطابنا - كذلك على خُطا رسول اللَّه (ﷺ) - لن يكون خطاباً لأمّة دون أمّة ولا لوطن دون وطن، ولكنّه خطاب للنفس البشرية وللضمير الإنسانيّ كلّه.

---

(١) انظر في تفصيل هذا سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص ٩٣، ٩٤.

وأما في المجالات الاستثنائية - مجالات الحروب والنزاعات، فإن الإسلام - كذلك - يقدم لنا الإطار الإنساني الذي يلزم بالتزامه، وعلى المسلمين أن يجاهدوا ليحملوا غيرهم على التزامه أيضاً...

ويقدم لنا (مارسيل بوازار) خلاصة النظام القانوني الإسلامي في هذه الحالات الاستثنائية في كتابه (إنسانيّة الإسلام) في هذه النقاط المحدّدة:

١ - حظر التجاوز والغشّ والظلم في جميع المجالات.

٢ - منع إنزال الأضرار الزائدة على الحاجة بالعدو، كالقتل، والقسوة، والتعذيب، المهين.

٣ - حظر أعمال التدمير غير المفيدة، ولا سّيما إتلاف المزروعات.

٤ - إدانة الأسلحة المسمومة والتدميرات الجماعيّة العشوائيّة.

٥ - التمييز بين المقاتلين، وهم يحملون في الجيوش الإسلامية شارات مميّزة - وبين المدنيين غير المشتركين بصورة مباشرة في القتال.

٦ - احترام المنسحبين من الالتحام، كالجرحى، والجنود المتمتعين بأمان موسّع - الحماية - وأسرى الحرب.

٧ - المعاملة الإنسانيّة للأسرى للذين يبادل بهم، أو يحررون من جانب واحد، حين تضع الحرب أوزارها، شرط ألاّ يبقى أيّ أسير مسلم في قبضة الأعداء.

٨ - حماية السكان المدنيين: احترام أديانهم - وبالتالي حضارتهم - رؤساء هذه الأديان، ولا شرعية لقتل الرهائن واغتصاب النساء.

٩ - تأكيد المسؤولية الفردية: إلغاء كلّ عقوبة تصدر بحقّ أشخاص عن جرائم لم يرتكبوها بأنفسهم.

١٠ - لا شرعية في مقابلة الأذى بالأذى والتدابير الردعية التي قد تكون مخالفة للمبادئ الإنسانيّة الأساسيّة.

١١ - التعاون مع العدو في الأعمال الإنسانيّة (١).

١٢ - منع كل مخالف لأحكام المُعاهدات التي يعقدها المسلمون منعاً باتاً..!!

والحقّ أن ما قدمه بوازار خلاصة قانونية كافية دالة على عظمة ما يملكه المسلمون للحضارة الإنسانية المعاصرة في شتى المواقف وفي كل الحالات... والمهم أن يجاهدوا في الله حق جهاده آخذين بأسباب التمكين والتأثير:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾(٢).

---

(١) مارسيل بوازار: إنسانية الإسلام ص ٢٩٤ منشورات لآب بيروت ط١/ ١٩٨٠.

(٢) الحج الآية: ٧٨.